لغة العلوم

تحقيق (المعرفة) في موضوع تدريس العلوم باللغة العربية ، في الجامعات . اشترك في الحلقة الخامسة كل من الاستاذ الدكتور عزة مريدن رئيس لجنة مقرري المجلس الأعلى للعلوم والمهندس الدكتور عبد الرزاق قدورة عميد كلية الهندسة .

— ٥ —

الطبيب الدكتور عزة مريدن

حينما طلب الي الاسهام في هذا الموضوع الهام، كدت أحيل الراغبين في معرفة رأيي بهذا الشأن ، الى ما سلف ان قلته في مناسبات سابقة في دمشق والقاهرة وبغداد ، واذا كنت لأحب أن أردد في كلمتي هذه ما كنت ذكرته في تلك المحاضرات والمؤتمرات والمناقشات ، ولا سيما محاضرتي عن تعليم الطب باللغة العربية التي ألقيتها على مدرج دار الحكمة في القاهرة ، فاني لأرى مندوحة عن التنويه ببعض ما جاء فيها من الحجج الدامغة والبراهين التي لا يتطرق اليها الشك ، بأن لغتنا العربية الحبيبة ، لغة كريمة معطاء ، تصلح كل حين

لدراسة العلوم المختلفة . وربما كانت دراسة الطب بها ، والتي ثبت لنا فيها ، خلال مايزيد على اربعين عاما في جامعة دمشق ، صلاح هذه التجربة ، خير ما نقدم به للملاحظات التي سنذكرها ، بعد اطلاعنا على المقالات المختلفة التي كتبها من سبقنا في الموضوع نفسه ، على صفحات مجلة المعرفة الغراء . ولعل استشهادي فيها بأقوال المنصفين من المستشرقين والعلماء الاجانب ، كاف ليلقم الشعوبيين والجاحدين المارقين ، ما يسكتهم الى الأبد .

ان كثيراً من علماء عصرنا الذهبي ، ممن ليسوا في الأصل عرباً ، قد اختاروا هذه اللغة للتعبير والتأليف والتدريس ، لأنهم وجدوها من أقدر اللغات على الأداء ، ومن أقواها في الاشتقاق والنحت والتصريف ، ومن أغناها في المفردات والصيغ والأوزان . يقول العالم (تارو) : « لقد كانت العلوم اول نشأتها يونانية ، فارسية ، هندية ، فاقتبسها العرب ، وترجموا جميع ما وقعت عليه ايديهم ، الى اللغة العربية ، وطبعوها بطابعهم ، واضافوا اليها الكثير من مبتكراتهم وآرائهم ، ولما استيقظ الغرب ، انتقلت هذه العلوم مترجمة عن اللغة العربية ، على يد أكابر التراجمة آنذاك » . ويقول لوكلرك : « لم يكد ينقضي القرن الثامن ، حتى كان العرب قد ملكوا جميع علم اليونانيين ، وحتى أضافوا اليه الكثير مما ابتكروه او نقحوه او جددوه ، وحتى اجتمع لهم في خزانة قرطبة وحدها زهاء (٦٠) ألف مجلد ، في مختلف العلوم والفنون » .

فليت شعري كيف استطاع العرب آنذاك ، أن يملكوا جميع العلوم اليونانية؟ والى أي لغة ترجموها ان لم تكن اللغة العربية ؟ و كيف امتلأت بطون هذه الكتب بالعلم ومصطلحاته؟و كيف كان يعبر أساطين الطب والرياضيات والكيمياء والجبر والفلك عن آرائهم ؟ وهل عجزت اللغة العربية آنذاك عن

نقل جميع المصطلحات العلمية او وضعها او تعريبها ، ويضيف (لوكلرك) : «ويعد أبو القاسم الزهراوي الذي كان في علمه ، وفي الجراحة خاصة ، منقطع النظير ، حتى انتهت اليه رئاسة الجراحة في القرون الوسطى ، كما يعد كتابه المصور في الجراحة ، الذي وضع به طرائقه ومبتكراته في الفنون الجراحية ، وفي مختلف الآلات التي صورها احسن تصوير ، آية كبرى بين المؤلفات العربية الرائعة » .

ولقد انتشرت اللغة العربية في عصر النهضة ، واختارها كثير من العلماء الاجانب للدراسة والتأليف ، لتفردها بمزايا كثيرة ، جعلتها تصلح للتعبير عن المسائل العلمية ، حتى تعلمها أساطين العلماء المستعربين وعلموا وألفوا بها ، أفكان هؤلاء العلماء يتحولون عن الانتاج بلغتهم السهلة عليهم ، لو كانت اللغة العربية فقيرة مجدبة ؟ وكيف استطاع التراجمة الغربيون أن ينقلوا الى اللاتينية ، قانون ابن سينا ، على ما فيه من المصطلحات الطبية الكثيرة ، وأن ينقلوا كتاب الجراحة لأبي القاسم الزهراوي ، وان ينقلوا الكثير الكثير من الكتب الاخرى ثم تعجز اللغة العربية اليوم – التي أخذت عن الأقدمين علومهم – عن نقل العلوم والمصطلحات الحديثة ، بل كيف يقر العقل والمنطق والتاريخ ، امكانية الترجمة عن العربية الى اللاتينية ، ثم ينكر هذه الامكانية المعكوسة .

ولقد تطورت العلوم اليوم ، في كل فروعها ، ونشأت عن هذا التطور وجوه جديدة للقول فيه ، وضعاً وتعريفاً او شرحاً وتصنيفاً ، لهذا كان لابد من أن تنمو اللغة وتزداد مفرداتها بوضع هذه المصطلحات العلمية ، وضمها الى صميم اللغة العربية ؟ فاللغة العربية قد نمت فيما مضى من الزمن ، بالاشتقاق والمجاز والنحت والتعريب ، أفمن العجيب اليوم ، أن تنمو بعد تطور العلوم ، بهذه الوسائل نفسها ؟

ولقد كفانا العلامة الأمير مصطفى الشهابي ، مؤونة الكثير من النقاش حول هذا الموضوع ، حينما وضع كتابه عن المصطلحات العلميــة ، يستطيع ان يرجع اليه من أراد ، ففيه آراء ثمينة عن المصطلحات العلمية وكيفية وضعهـــا وتوحيدها ، ويعد تحفة رائعة تنير السبيل أمام الباحثين والمحققين ، واذا كانت العلوم المختلفة ، تدرس في البلاد المختلفة بلغات أهلها ـــ الا في النادر النادر ، من اصحاب اللغات الضحلة ، او من المتخاذلين الكسولين ، الذين يتقاعسون عن البحث في لغاتهم وما فيها ، فكيف نستسيغ ، نحن العرب ، تدريس العلوم بلغات غيرنا من الأمم ، واللغة العربية من أغنى وأقدر لغات الأرض.

ولأسمح لنفسي مرة ثانية أن أسوق هنا مقطعاً من محاضرتي عن فضل العرب على الانسانية في الميادين العلمية التي ألقيت على مدرج جامعة دمشق في حفلة افتتاح اسبوع العلم الثاني .

يقول السير (وليم أوسلر) « لئن أشعل العرب سراجهم من القناديل اليونانية ، فانهم مالبثوا ان اصبحوا جميعاً شعلة وهاجة استضاء بنورها أهـــل الأرض » ، ويقول العلامـة الدكتور عبد الرحمن بدوي : « لئن ضاع معظم اصول العلوم اليونانية ، فان العرب قـــد حفظوها ، ثم مالبثوا أن جودوها وزادوا عليها ، وانتقلت عنهم الى البلاد الغربية ، محسنة ومجودة ومزيدة » . ويقول (سارطون) انه لعمل عظيم جداً ان ينقل العرب علوم اليونان وفلسفتهم وأن يزيدوا عليها حتى اوصلوها الى درجة مرموقة من النمو والارتقاء ، ويقول (سيديو) أن العرب كانوا اساتذة اوروبا كلها في جميع فروع المعرفة ، فقــد انتشرت اليها علومهم من مصر وسورية ابان الحروب الصليبية ، ومن صقلية ونورمانديا وجنوبي ايطاليا ، في عهد بني الأغلب ، ومن الأندلس ، وهي

اكبر مركز للتصدير ، انتشرت العلوم بواسطة التراجمة والرواد الذين اموها من بلاد الغرب ينهلون العلم من منابعه الثرة الدافقة ، في ظلال الحكم العربي السمح ، وألمع هؤلاء الرواد جربر Gerbert المولود في اوفيرنا ، والذي رقي فيما بعد ، لرتبة البابوية باسم (سلفستر الثاني) وذلك لطول باعه في العلم الذي أخذه عن العرب في الأندلس ، وهو الذي نقل الأرقام العربية الى اوربا ، وسهل بذلك علم الحساب والفلك والرياضيات ، وكانت طليطلة واشبيلة وقرطبة وغرناطة ، منائر تتألق بالعلم ، في غضون الحكم العربي ، وحينما سقط الفردوس المفقود ، كان اسقف طليطلة يجمع العلماء في قصر الزهراء ، لترجمة الكتب العربية ، تمهيداً لتدريسها والافادة منها ، فقد نقل (ليونارد) كتب الجبر والطبيعة ، وامر (روجه الاول) في صقلية ، ان تكون كتب الادريسي ، المرجع العلمي الصادق ، وحينما أفل نجم العرب عن صقلية وحكمها النورمانديون وجدوا ان لامناص لهم ، من تعلم اللغة العربية ، وقربوا العلماء للانتفاع بهم ، وحافظوا على آثارهم ، ودعا حاكم صقلية بعدئذ (روجه الثاني) الشريف الادريسي هذا ، للتأليف في الفلك ، فوضع له كتابه الشهير (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) ، وحث الامبراطور (فردريك الثاني) على دراسة علوم العرب ، حتى كان ابناء الفيلسوف ابن رشد ، يقيمون في بلاط الامبراطور ، ليعلموه دروس النبات والحيوان ، ولم تذكر المراجع اللغة التي كانت تلقى بها هذه الدروس ، ولكن المسألة لاتعدو ان تكون احد امرين ، فاما ان تكون هذه الدروس قد اعطيت باللغة العربية ، وهذه مناسبة جميلة للتدليل على فضل هذه اللغة الحبيبة واضطرار الغربيين لتعلمها ، ليستطيعوا دراسة العلوم العربية المختلفة ، واما ان تكون تلك الدروس قد اعطيت باللغة الاجنبية ،

وهذا دليل آخر على ان اللغة العربية تأخذ وتعطي وتتطور وتنمو ولا تعجز عن نقل ما فيها الى لغات غيرها كما لم تعجز عن نقل ماعند الآخرين اليها .

ولعل الحجج الواهية التي يدلي بها خصوم اللغة العربية ، وتدليلهم على فشلها في التعليم العالي خاصة ، تستمد عناصرها من الفوضى الضاربة اطنابها في التعبير عن المصطلح الواحـــد ، بين استاذ وآخر ، وقسم وآخر ، وكلية واخرى ، كل منهم يعتقد أن ماوجده هو الأصح الافصح ، بل قـد يعتقـد بعضهم أنه يكون اقرب الى العربية كلما تشدق وتفاصح ، مع ان لغة العلوم تتطلب اليسر والسهولة والتعبير من اقصر الطرق السليمة ، ثم ان بعضهم يتمسك ببعض الحجج الأخرى وأهمها ان تطور العلوم السريع المستمر الوارد الينـــا نحن العرب — ونقولها آسفين — من خارج البلاد العربية ، حيث العلماء الباحثون ، الذين يطلعون على العالم كل يوم بالجديد من آرائهم ومبتكراتهم ، يقضي بأن تكون الدراسة الاصلية ، بله المتابعة فيما بعد ، باللغة الاجنبية . ان الرد على هذه الحجج الواهنة يتوفر بسهولة ، متى القى المسؤولون في وزارة التربية، بثقل كاف للحض على تعلم اللغات الاجنبية والعنـــاية بتعليمها ، ويوم يتم الاصرار الكثير على كل من يرتاد الكليات الجامعية ، ولا سيما الكليات العلمية التطبيقية ، ان يكون متقنا للغة أجنبية او اكثر ، ليستطيع المتابعة فيما بعد التخرج . وفي كل حال ليس الذنب ذنب اللغة العربية ، لأن التعليم بها ، يفرضه الواجب القومي ، ولكن تقصير المتعـلمين ، يعود اليهم انفسهم ، في تـكاسلهم وتخاذلهم عن المتابعة والبحث والدرس باستمرار ، ويعود سبب ذلك اما لجهلهم او لضعفهم باللغة الاجنبية ، لهذا فان الحلول التي طـالما رددناها حينا كنا نحمل اعباء المسؤولية في كلية الطب ، والصيحات الكثيرة المتلاحقـــة التي

طالما اطلقناها في وجوه المسؤولين ، ليعيدوا النظر في برامج تعليم اللغات ، ذهبت أدراج الرياح ، ولعل المسؤولين اليوم يقتنعون معنا بأن اتقان تعلم لغة اجنبية بل لغتين ، اصبح ضرورة من ضرورات الحياة العلمية ، لا في الامم المتخلفة فحسب ، بل في الامم الراقية ، وهذا مثال حي امامنا نجده في فرنسا ، على اصالة علومها واتساع ثقافتها ، لم تفرض انظمتها الالمـــام باللغة الانكليزية وحسب ، بل فرضت اتقانها الى جانب تعلم لغة اخرى يختارها الطالب .

ولما كان السباق العلمي بين الأمم ، اصبح شعار الدول الكبرى في عصرنا الحاضر — عصر الفضاء — فان التطور الذي يقلب المفاهيم العلمية بين يوم وآخر ، يفرض الاتصال المستمر بهذا التطور ، كما يفرض مراقبة هذا السباق بعيون مفتوحـــة وقلوب مليئة بالحزم والجد والنشاط ، ولن يكون ذلك ممكناً ان لم يكن هناك مطلعون وباحثون بأعداد وفيرة ، يتابعون مايجري كل حين على هذه الارض ، بالقراءة والاطلاع والاندماج ، وكيف يتسنى ذلك ان لم يكن هناك من يتقن اللغات التي تصدر عنها او تذاع بها البحوث والكشوف والمخترعات .

وهنا أحب ان تكون الحدود واضحة جلية ، في الفرق بين تعلم اللغات الاجنبية ، وبين التعليم بها في بلد ووطن غير بلدها ووطنها ، فهما أمران مستقلان ، ولا رابطة تلزم بالضرورة ان يتصل هذان الموضوعان ، ولكن الضرورة القوميـة تفرض علينا فرضا أن نجعـل التدريس في بلادنا بلغتنا وأن ننشىء أبنـاءنا وأجيالنا على الفخر والاعتزاز بلغتهم وبمقدرتها على اساغة العلوم واستيعاب الثقافات ، واذا كنا اليوم بحاجة قصوى الى الاغتراف والعب من علوم الآخرين ، فان تاريخنـا شاهد علينا ، وليس الذنب ذنبنا ، فلقد عشنا قروناً طويلة في ظل الاستعمار

والعبودية ، نتخبط في دياجير الجهل والظلام ، بينما كان أجدادنا الأول منارة الدنيا وكعبة العالم ، واذا قـدر للتاريخ ان يعيد نفسه ، واصبحت للعرب علومهم ومبتكراتهم ، فكيف سيأخذ عنا الآخرون ؟ الم يأخذوا في الماضي بترجمـة كتبنا وثقافتنا من لغتنا العربية الى لغتهم الاجنبية ، فلماذا نحرم على انفسنا ما أحل لغيرنا في الماضي وماسيحل لهم في المستقبل .

قلت لئن ضربت الفوضى أطنابها في ترجمة المصطلحات في البلاد العربية المختلفة ، بل في الجامعة الواحدة احياناً ، فان سبب ذلك تقاعس المسؤولين في البلاد العربية ، عن وضع هذ الأمر الخطير موضع الجـد ، والبحث فيه بحثاً مثمراً له أصوله وقواعده ، كأن يفرض على جميع العلميين في كل البلادالعربية ، تبني مايراه المجمع اللغوي ، ولو تراءى للبعض خطأ ما اتفق عليه ، وما أشك ان الكلمات التي وضعها أو كان هذا المجمع للمصطلحات العلمية ، الا مستوفيةشروط التعريب والتصريف والنحت والاشتقاق ، وارى انه لخير الف مرة ان نرغم أنفسنا جميعاً على استعمال كلمة واحـدة لمصطلح تم وضعه نهائياً من أن ندع أ نفسنا نتخبط في بحران المفارقات العجيبة التي يطلع بها كل استاذ او كل عالم على حسب رأيه وهواه ، على أن يزود الاساتذة العلميون كافة ـ كل بحسب اختصاصه ـ ببيانات عن المصطلحات الموضوعة التي تم اقرارها ، وأن يكون استعمالهاملزماً في المحاضرات والمؤلفات ، إلا إذا تبين للأكثرين أن هناك كلمات أفضل ، وتمت المناقشة حولها ثم أقرت على شكلها الأخير .

ويوم قام المعهد الطبي العربي ، لم يعجز مؤسسوه عن أن يجـدوا في اللغة العربية ، مايلزمهم لتعليم الطب بهذه اللغة ، ويوم ضمت الجامعة السورية (جامعة دمشق اليوم) الى هيئتها التدريسية ، عـدداً غير قليل من الاساتذة

الذين تعلموا في ديار الغرب بلغة اجنبية ، ثمر هؤلاء الاساتذة الجدد ، عن سواعدهم ، وأضافوا الى ماوضعه السابقون غير قليل من التعابير والمصطلحات السليمة ، التي تداولها الطلاب والمتخرجون من العاميين والأطباء ، واصبحت على كل شفة ولسان ، بـــل ألفوا كتباً أصبحت بعددها ، تضم مكتبة علمية كبيرة ، تفاخر بها الجامعة واركانها .

ولقد القيتُ في القاهرة ، دروساً سريرية على طلاب كلية الطب بجامعة القاهرة ، ورأوا في التعابير والمصطلحات العربية الجزلة ، سلاسة وجمالاً ، ودب الحماس في النفوس ، وقامت فكرة تعريب التعليم الجـــامعي ، وان كان لقي معارضة قليلة بين بعض الاساتـــذة ، الذين قضوا شطراً غير قليل من حياتهم في البلاد الاجنبية وتعلموا بلغتها وألفوها ، ولا أزال اذكر جيداً — في المحاضرة التي ألقيتها على مدرج دار الحكمة في القاهرة عن تعليم الطب باللغة العربية — ذلك الأثر البالغ العميق ، وذلك التصفيق الحار ، الذي لقيته محاضرتي من قبل الأكثرين ولا سيما أنصار التعليم باللغة العربية من أمثال العلامة اللغوي المرحوم منصور فهمي والدكتور كامل حسين والدكتور محمد ابراهيم والدكتور أحمد عمار والدكتور محمد أحمد سليمان والدكتور سعيد عبده وغيرهم كثيرون ، كما أذكر ايضاً نقداً ورد على لسان أحـــد المعارضين من اساتذة كلية الطب بجامعة القاهرة ، وكان شديد الحماس للتعليم باللغة الانكليزية ، قال : « اني أعتقد أن القوة والسيطرة في عصر العرب الذهبي هما السبب الوحيد في جعل اللغة العربية لغة العلوم آنذاك » ، قلت : « من فمك أدينك ، انك تريد ان تقول بشكل آخر ، ان القوة والسيطرة نفسها ، كانتا السبب في ابدال اللغة الانكليزية باللغة العربيـــة ، في التعليم الجامعي في مصر ، أي أن هـذا التبديل ، صورة

واضحة عن الاسلوب الذي يرتبط بالسياسة والمصالح الاجنبية ، في البلاد التي فرض عليها التخلف والاستعمار » ، فبهت الناقد وسكت وأرتج عليه . ومع ذلك كله فما زلت أعتقد أن المتقاعسين عن الأخذ بالرأي القومي السديد ، الذي يفرض التعليم باللغة العربية ، ليسوا خصوماً ألداء للغتهم الحبيبة ، حتى يقفوا منها موقفاً سلبياً ، منادين بعجزها عن مسايرة التقدم العلمي والمصطلحات العلمية ، فليس يقول بمثل هذا ، إلا جاحد أوجاهل ، وانما معظمهم من الذين ألفوا التحدث والتدريس باللغة التي تعلموا بها ولا سيما الانكليزية ، أو من المتكاسلين عن البحث في بطون الكتب اللغوية ، عن الكلمات التي يصح استعمالها في مقابل مايستجد من المصطلحات الكثيرة ، ولو أمعن هؤلاء النظر ، لأدركوا أن مرد ذلك كله ، يعود في أصله الى تصميم أجنبي قاهر ، يخطط كل يوم ، ليباعد بيننا – نحن العرب – وبين أقوى صلة لنا بقوميتنا ، ألا وهي اللغة . ومتى استطاع أن يجر الى حظيرته بعض الوطنيين ، وبعضهم مع الأسف من الذين يمارون أويسايرون أويتملقون ، على حساب أقدس مقدساتهم ، فقد ضمن المباعدة بيننا وبين لغتنا ، أي بيننا وبين أقوى صلة تربطنا بقوميتنا العربية . وليس العجب أن يقرر خبراء اجانب ، أن تكون لغة التدريس في كلية الطب ، المزمع انشاؤها في حلب ، اللغة الانكليزية ، ولكن العجيب ، أن يقر ذلك أعضاء اللجنة الوطنيون وكثير منهم تعلموا في دمشق ، ودرسوا باللغة العربية ، وبينهم البارزون المتفوقون . ان لغة يغير فيها حرف واحد معنى الجملة كلها ، تغييراً كبيراً ، لهي لغة غنية لافقيرة ، قوية لاعاجزة ، طموحة لامتخاذلة ، فلنستمع الى الآية الكريمة : (قال أرأيت اذ أوينا الى الصخرة فاني نسيت الحوت ...) ان حرف الفاء قبل اني ، يفيد بجلاء ووضوح ، معنى

الأسف والاعتذار ، ولو حذفت هذه الفاء ، لأصبح المعنى يفيد الاصرار وعدم الاكتراث ، وفضلاً عن ذلك فان اللغة العربية كما أسلفت من أقـدر اللغات على التصريف والنحت والاشتقاق ، كما أنها لغة غير متعصبة ، تضم بين دفتيها غير قليل من الكلمات الدخيلة المعربة – حتى في القرآن الكريم – وهو أكبر مرجع صحيح في لغـة العرب ، فلماذا لانتبنى الهرمون والفيتامين والماليخوليا مثلاً كما تبنى أسلافنا الكيمياء والجغرافية والاصطرلاب ، وكما أخذ عنا الغربيون القطن والمن والحزام والغول وغيرها .

ولقد أعجبتني كلمة الاستاذ الدكتور بشير العظمة ، حول لغة العلوم ، وأكثر ماأعجبني فيها قوله : ان الاستمرار في موقف اللامبالاة ، واعتبار موضوع لغة العلوم اختصاصاً قطرياً محلياً يتصرف بـه المختصون فردياً كما يشاؤون ، سيباعد بيننا أكثر فأكثر ، وستقوم جامعات في عمان والسعودية والجزائر والمغرب ، تعتمد لغات أجنبية مختلفة ، واللغة العربية في القاهرة ستكرسها الايام مختلفة عن لغات عربية في سورية وبغداد .

ولست أدري ان كان ماجاء في كلمة الدكتور سلمان قطاية ، يعبر عن رأيه الشخصي ، أم هو ناقل للوقائع ، فقد صدّر كلمته بقوله : « أن أغلب بلاد المغرب العربي مؤمن بعقم اللغة العربية حيال العلوم العصرية ، وان مجرد سرد بعض المصطلحات العربية يثير لدى البعض بسمات السخرية » ثم يقول أيضاً أن كلية الطب في دمشق ، فشلت في تحقيق هدفها من حيث تأليف الكتب الجديدة.. الى أن يقول : « ولو أننا أخذنا الكتب الصادرة في دمشق لوجدناها (أقصد الكتب الطبية) ضعيفة اذا ماقورنت بمثيلاتها باللغة الاجنبية ، وان الطلاب السوريين ، يتعلمون المصطلحات باللغة الاجنبية ، فلم لاتدرس العلوم معها بالفرنسية أو

الانكليزية ، خاصة وأن العلوم ذات طابع انساني لا علاقة لها بالشعور القومي » ....!.

لعل الدكتور قطاية لم يحسب حساباً كافياً للسنين الطويلة التي رزح فيها المغرب العربي تحت نير الاستعمار ، حتى انقطعت لدى بعضه صلتهم بلغتهم انقطاعاً كلياً ، وبتنا لانستطيع أن نفهم مايتكلمه اكثر الخاصة فضلا عن العامة ، باللغة العربية ، لما يمازج حديثهم من كلمات اجنبية عربوها على هواهم ، أما مايقوله عن فشل التأليف باللغة العربية ، فأحب ان اطمئن الدكتور قطاية بأن معظم الكتب المؤلفة من قبـــل اساتذة كلية الطب ، هي كتب مدرسية متعارف عليها ، تنقل متونها عن الكتب التي تتداولها أيدي طلاب الطب في الكليات الفرنسية او الانكليزية او الامريكية او غيرها ، فاذا لم تكن الكتب العربية جيدة ، فهذا يعني — الى بعض الحدود — ان الكتب التي أخذت عنها ، ليست جيدة ايضاً ، فهل هـــذا مايراه الزميل الكريم ؟ قلت — الى بعض الحدود — لاستدرك استهجان سوء الترجمة احياناً وهذا نادر جداً ، او سوء اختيار الكلمات الجيدة ، التي تفي بالمعنى المقصود ، من غير تقعر ولا غرابة .

أما بعض الملابسات التي أوردها للتدليل على عجز اللغة العربية ، والتي لاعلاقة لها بالموضوع مطلقاً ، كعدم تقدير المسؤولين لمهارة الذين درسوا باللغة الاجنبية ، واصطدام العائدين الى الوطن منهم بواقع رهيب (كذا) ، ومجتمع متناقض بين مثالية مغرقة في الرومانسية ، وامكانيات تبعث على الرثاء والشفقة ، كل هذا الذي أورده الدكتور قطاية ، لايمت بصلة قريبة او بعيدة للموضوع الذي نحن فيه ، ما دخل اللغة العربية في جميع هذه الملابسات ؟ اننا نتساءل ، وان يكن الزميل نفسه قد كفانا الاجابة بقوله : ليست المشكلة مشكلة لغة

فحسب »، أما نحن فأصل موضوعنا : اللغة العربية التي نتكلمها ونبحث ونؤلف ونحاضر بها ، وهي كل من صميم كياننا وقوميتنا ، واذا كنت أعترف بوجود المشكلة – مع القائلين بوجودها – فليس الحل الذي نقدمه لها هو التعليم بغير لغتنا . ان مشكلة المتابعة والتطور بعد التخرج ، تجد حلولها الوافية فيما أوردته عن ضرورة اتقان لغة أجنبية او لغتين ، بحيث لا تمس قضيتنا القومية بما يشوهها ، ولانسيء بشيء الى لغتنا العربية العزيزة .

تغمدك الله برحمته أيها الاستاذ مرشد خاطر ، كم كنت متعصباً للغتك وكريما ، يوم كنت تنشىء المقالات الطوال في مجلة المعهد الطبي العربي ، وكيف جعلت هذه المجلة منبراً حراً للعلماء والاطباء واللغويين من امثال الكرملي والمعلوف والشلبي والكثيرين من العلماء والأطباء ، ومن اعضاء المجمع العلمي العربي ، يتسابقون عليه لنبش الأصلح ، والأفصح ، من الكلمات التي تتفق مع معاني المصطلحات الطبية والعلمية الحديثة ، حتى اتئت هذه المجموعة الضخمة من الكلمات والمصطلحات صلاحها ، فتبناها اساتذة كلية الطب ، واصبحت تتردد على السنتهم في المحاضرات وفي كتبهم الكثيرة التي الفوها ، كل في اختصاصه ، كما استساغها الطلاب والاطباء في الاقطار العربية الشقيقة ، وبتنا نسمعها من افواه الذين تعلموا الطب في جامعتي بيروت الفرنسية والامريكية او في الجامعات الغربية الاخرى .

ورحمك الله ايها الاستاذ جميل الخاني ، فقد كنت شريفاً ومخلصاً واميناً على لغتك وعروبتك وقوميتك ، ومد الله في عمرك ايها الاستاذ احمد حمدي الخياط فقد وضعت في المصطلحات الجرثومية والطفيلية والصحة كلمات لم يستطع أحد حتى اليوم ان يجد خيرا منها ، واسهمت مع زميلك المرحوم

مرشد خاطر والدكتور صلاح الدين الكواكبي بوضع معجم المصطلحات العلمية ، وبارك الله لكم ورعاكم يا زملاء هؤلاء من الأحياء ، على الجهد الذي تتابعونه وتبذلونه لرعاية اللغة العربية والحفاظ على جلالها وقدسيتها ، واني بعد الذي ذكرت في تضاعيف كلمتي من الحلول المختلفة للمشكلة ، التي ارادوها ان تكون مشكلة ضخمة ، أرى انه قد آن الاوان ، بعد طول الغفوة ، وبرغم الجهود التي يقوم بها المجمع اللغوي في القاهرة والمجمع العربي العلمي في دمشق ، وبعض المجامع العربية الأخرى ، لأن تتبنى الدول العربية كافة بحزم وعزم وتصميم ، خلاصة المقترحات المفيدة التي تضمنتها كلمات الباحثين حول لغة العلوم .

المهندس الدكتور عبد الرزاق قدورة

اشكر مجلة (المعرفة) دعوتها العاملين في مضمار التعليم الجامعي الى المساهمة في المناقشة الهامة التي فتح بابها السيد الاستاذ الدكتور بشير العظمة بمقالة « اللغة العربية ، وهل تتسع لمصطلحات العلم الحديث » وساهم فيها حتى الآن السيد الاستاذ الدكتور احمد شوكة الشطي ، والسيد الدكتور سلمان قطاية ، والسيد الدكتور صلاح احمد . ويسرني ان اتقدم ببعض الافكار التي أوحت لي بها هذه المناقشة .

اني اعتقد ان الدكتور بشير العظمة قد كتب في هذا الموضوع مقالا شاملا جامعاً ، واود ان اعبر عن مشاركتي اياه الرأي في الفكرة الاساسية التي عرضها ، واذا كانت لي ملاحظات تخص بعض الافكار الثانوية او الصياغة في بعض الاجزاء ، فاني لا ارى ان من المثمر الخوض فيها الآن . ويتراءى لي ان فكرة الكاتب الأساسية ، وهي ان استعمال اللغة الوطنية في التدريس ضرورة قومية ، وواجب ديمقراطي شعبي ، وامر تقضي به مصلحة نشر العلم والمعرفة بين جماهير الأمة ، هي فكرة لا يختلف فيها اثنان ، وبخاصة اذا كانت هذه اللغة هي اللغة العربية الكريمة لغة القرآن والاسلام ، لغـة الثقافة والحضارة العربية العظيمة ، ولقد أحسن السيد الدكتور شوكة الشطي في الرد على القائلين بعجز اللغة العربية عن التعبير عن العلم الحديث ولم يترك في ذلك مجالا لمستزيد .

ان قبولنا بهذه الفكرة الاساسية ، وايماننا العميق بصحتها ، وبأنها أحد السبل الاساسية لاقامة صرح نهضة علمية عربيـــة جديدة ، لايعني ابداً انهاء المشكلة وحلها ، بل هو بداية الطريق وأول الدرب . وتثـــار حول استعمال اللغـــة العربية اعتراضات عديدة اشار اليها السادة الكتاب ، ولعل من أهمها ثلاث نقاط :

١ – ان استعمالنا اللغة العربية في التدريس ، واقتصارنا عليها، يجعل طلابنا عازفين عن اتقان لغة اجنبية ، فيضع ذلك بينهم وبين العلم حاجزاً كبيراً وسداً منيعاً ، ويجعلهم بمعزل عنه ، وخاصة بعـــد تخرجهم من الجامعة ، ويحول بينهم وبين المساهمة في نقل العلوم الى العربية ونشرها وتبسيطها بعد انتهاء دراستهم .

٢ – ان فوضى المصطلحات العلمية باللغةالعربية تحول في اكثرالاحيان بين الاختصاصي العربي في علم ما وبين فهم ما كتبه باللغة العربية اختصاصي آخر في العلم ذاته .

٣ – ان انتقاء المصطلحات ، واستخراجها من خزائن اللغة العربيـــة الغنية ، واشتقاقها ونحتها أحياناً ، أمر يتطلب مجهوداً عظيماً كان أولى به ان ينفق في نقل العلم ذاته الى المتعلمين ، وتيسير أسبابه لهم .

وأود ان أناقش كل واحد من هذه النقـــاط الثلاث ، وان اختم كلمتي بوصف تجربة لنا متواضعة في كلية الهندسة الناشئة بجامعة دمشق .

١ – الاقتصار على اللغة العربية والعزوف عن اللغات الأجنبية :

يلاحظ العامل في نطاق التعليم في جامعة دمشق ضعف الطلاب في اللغات الأجنبية ، واستخفافهم بها . وفي هذا ، في اعتقادي ، ضرر عظيم لم تنصرف

الجامعة حتى الآن الى معالجته معالجة ناجحة . ولقد أصاب الدكتوربشيرالعظمة حين ذكّر بأحد الواجبات الأساسية للجامعة وهو نشر العلم بين الأوساط الشعبية الواسعة . ولكن كيف يتأتى للجامعة ذلك اذا هي لم تهيىء في كلياتها الأفراد العاملين ، القادرين بأعدادهم الكبيرة ، على ان يترجموا العلم ويبسطوه ويشرحوه للجماهير . وهل يستطيع أساتذة الجامعة والعاملون فيها لوحدهم ، على قلة عددهم وارهاقهم بمختلف المهام ، ان يسدوا هذه الثغرة ، وان يلبوا هذا المطلب المشروع؟

ان استعمالنا اللغة العربيـة في التعليم الجامعي مرتبط في اعتقادي ارتباطاً عضوياً بمعرفة الطلاب للغة اجنبية او اثنتين . ولا يكفي ان نقرر هذا الشيء وان نؤمن به افواهنا ، وانما علينا ان نجعل من تدريس اللغـة الأجنبية للطلاب العاملين في الجامعة أمراً أساسياً لاتقل أهميته عن دراستهم لعلوم اختصاصهم . ولقد تقهقرت معرفة الطلاب باللغة الأجنبية في جامعة دمشق تقهقراً مستمراً منذ سنوات . ولا خير في ان نقول اليوم ان هذه هي مسؤولية التعليم الثانوي والاعدادي ، وان على المسؤولين عنه ان يجدوا حل المشكلة ودواء الداء . ولعل هذا يكون صحيحاً في المستقبل البعيد ، اما في الوقت الحاضر فلا مفر من ان تبادر الجامعة الى العمل المثمر ، وان تجعل تدريس اللغة الاجنبية في كلياتها العلمية أمراً أساسيا تصمم عليه وتخطط له ، وتبحث في سبيله عن الطرق الناجعـــة والأساليب المفيدة . وليست هذه الطرق ولا تلك الأساليب قريبة المنال واضحة المعالم ، ولكنها ليست مستحيلة التحقق ابضاً اذا ما توافر التصميم والعزم الصادق ، ورفضنا بقـاء الحال الراهنة التي تجعل من تدريس اللغة الأجنبية في اكثر الكليات العلمية أمراً ثانوياً مهملا يستخف به الطلاب وتزدريه الجامعة ،

ولعل من الخير ألا ننسى ان الدول المتقدمة في العلم تدرس اللغات الأجنبية

لطلابها في جامعاتهم ، لتحثهم على ذلك ، وتعد للمحسن فيه الثواب ، وللمتأخر عنه الجزاء والعقاب . وهذا هو شأن البلاد الانكلو سكسونية مثلاً التي تدرس الفرنسية او الألمانية أو الروسية او الاسبانية لطلابها ، وكثيراً ماتحملهم على تعلم لغتين لا لغة واحدة فقط . فاذا كان هذا هو رأي تلك الأمم ، والعلم مكتوب بلغاتها تتفجر مكتشفاته ومخترعاته بين ايديها ، فكيف بنا نحن العرب وواجبنا الأول اليوم ان نكرر ما فعله اباؤنا في بدء نهضتهم العلمية الغابرة الزاهرة ، فنعب من العلم الأجنبي عباً ، وننقله لشبابنا المتفتح وجيلنا الصاعد في لغة امه وابيه ، حتى يتمثله ويهواه ، فيساهم فيه عندئذ بالقسط الأكبر والنصيب الوافر .

وانا اقترح ان تقيم السلطة الجامعية المسؤولة لجنة جامعية دائمة تمثل فيها الكليات العلمية ، وتخطط لموضوع اللغة الاجنبية تعليماً جدياً منتجاً منظماً ، وتثير في الجامعة نقاشاً مثمراً حول هذا الموضوع يصل بالهيئات الجامعية المسؤولة الى تبني الحلول المقترحة . وأرى ان يكون عمل اعضاء هذه اللجنة شيئاً من صميم واجباتهم الجامعية ، يثابون عنه ويؤجرون ، ويحاسبون على التقصير فيه او التهاون ويسألون ، لا ان يكون تبرعاً اضافياً هامشياً يجتمعون من اجله في البدء متحمسين له قانعين به ، ثم تفتر هممهم ، وتشغلهم اعمالهم الاساسية الأخرى ، فينصرفون عنه يائسين ويتركونه نادمين .

٢ — اختلاف المصطلحات العلمية وتضاربها :

لقد قيل في فوضى المصطلحات العلمية الكثير . ولعمري ان هذا لخطر داهم يهدد التعريب في صميمه ، ويعطي اعداءه الصريحين والمقنعين اكبر حججهم وامضاها سلاحاً . واني لأذكر والأسى يحز في نفسي تجربة عانيتها في احد الاجتماعات العلمية العربية . فقد تحدث متحدث في موضوع استعمال اللغة العربية

لتدريس العلوم ، فتحمس له البعض ، وأنكر قوله البعض الآخر ، فأدليت بدلوي في الدلاء ، وانتصرت للغة العربية ووقفت في صف المدافعين عنها ، فتقدم مني أحد منظمي الاجتماع ، وكان لم ينطق بكلمة طيلة المناقشة ، ولم ينحز الى هؤلاء ولا الى أولئك ، واعطاني كتاباً عربياً مترجماً عن أصل أجنبي ، في موضوع اختصاصي ، وفتح لي صفحة فيه من دون تعيين ، وطلب مني أن اقرأ فقرأت ، وسألني ان كنت فهمت كل ما قرأت ، فقلت له صادقاً اني لم افهم كل شيء تاماً ، وان كنت استطيع أن اخمن مالم افهم لأني لصيق بالموضوع مطلع عليه ، فأعطاني الأصل الأجنبي ، وبحثنا عما يقابل فيه الصفحة التي قرأتها ، وطلب مني أن اقرأ ، ثم سألني ان كنت فهمت ما قرأت ، فأجبت بنعم ، فقال لي : « لقد قلت وقالوا الشيء الكثير ، واطنبت واطنبوا في مدح اللغة العربية ، وتعداد شمائلها ، وذكر محاسنها . ولكن هذا هو المحك الذي لا التباس فيه . قرأت النص العربي المترجم فلم تفهمه فهماً كاملاً ، مع انك ممن تعمل في هذا العلم ، وقرأت الأصل الأجنبي فما تعذر عليك فهمه ولا التبس عليك معناه ، فما بالك بالطالب المتعلم ؟ » .

ولقد احسن الدكتور بشير العظمة حين قال ان فوضى المصطلحات العلمية قد تودي ، لا سمح الله ، بوحدة لغتنا العربية في المجال العلمي ، وهي جزء من وحدتنا الكاملة التي حفظت لنا عروبتنا وابقت على تطلعنا الى الوحـــدة المرتقبة وايماننا بانها آتية في يوم قريب باذن الله .

وأود ان اثني على ما قاله السادة الزملاء وان اضم صوتي الى اصواتهم مقترحاً ان تعمل الدول العربية على اقامة مركز رئيسي للتعريب له فروع في كل بلد عربي ، ليعمل الجميع عملاً دؤوباً على توحيد المصطلحات العلمية

والتوفيق بينها . ولنا في مكتب التعريب بالرباط اسوة حسنة ومثال يحتذى . واعتقد ان الدول العربية اذا اتفقت على ذلك ، وانفقت عليه انفاقاً سخياً ، فانها تكون قد احسنت صنعاً ، وبنت للمستقبل بنياناً عظيماً متيناً ، ولعل بلادنا سورية التي شغفت بتدريس العلوم باللغة العربية ، وضربت فيه بسهم وافر ، تحمل هذا الاقتراح الى البلاد العربية الاخرى فيكون لسورية ، اذا صادف اقتراحها قبولاً ، شرف السبق الى أمر جليل ومأثرة عظيمة .

٣ – الجهد في انتقاء المصطلحات وفي نحتها واشتقاقها أحياناً :

أشار السادة الكتّاب الى الجهد العظيم الذي ينفق في انتقاء المصطلحات، والى التوفيق الذي يصاحبه حيناً ، والفشل الذي يهدده أحياناً أخرى . وذكر الدكتور صلاح أحمد امكان الاستعارة من اللغات الأجنبية . وأنا أرى في هذا أمراً محموداً سارت عليه العربية في الماضي فجنت منه ثمراً طيباً ، وتسير عليه لغات العالم المختلفة اليوم ، فتستعير وتعير ، لاتأنف من ذلك ولاترى فيه سبة ولاعارا . وليس يخاف على احد كم تستعير الفرنسية من الانكليزية كلمات علمية وفنية ، ورياضية وتجارية ، وغيرها ، الى حد ان احد الغيورين على نقاء اللغة الفرنسية وصفائها ، وخلوها من الدخيل الاجنبي ، وهو الاستاذ اتيمبل كتب كتاباً سماه الفرنكليزية Franglais ، نعى فيه على قومه افراطهم في هذا السبيل . واذا قال قائل ان الفرنسية من الانكليزية قريبة ، وانه لاعجب اذن في ان تستعير احداهما من الاخرى ، وان الكلمة الانكليزية الآتية الى الفرنسية ، او الفرنسية الآتية الى الانكليزية ، لاترى في ذلك ضيراً ، ولا تلقى في بيتهما الجديد الا اشقاء واخوات، قلنا ان مثل ذلك يقع ايضاً بين الروسية والانكليزية مثلاً مع ان الشقة بينهما

أبعد ، والصلة أضعف ، وأضفنا ان الكلمات العلمية والهندسية ، وخاصة منها الحديثة ، تكاد تكون واحدة في لغات الشعوب الصناعية المتقدمة، تلفظها كل امة اللفظ الذي يلائم عبقرية لغتها ، من دون ان تنقطع الصلة نهائياً بين الكلمة ، وبين اصلها الاول (وهو في غالب الاحيان لاتيني أو يوناني).

إذا أضفنا الى كل ماسبق هذا العدد الهائل من الكلمات العلمية والهندسية الجديدة الذي يستنبته العلم وتستنبطه الهندسة في كل يوم ، وأينا ان من العبث ان نعرب كل قطرة من هذا البحر الزاخر بكلمة عربية فصيحة راجعة الى سلالة سليمة ، ففي ذلك جهد ننوء به ولذلك أرى مع الدكتور عظمة والدكتور احمد ان ننقل اكثر هذه الكلمات ، وخاصة منها الكلمات الحديثة ، بعد ان نصقلها صقلاً مناسباً يجعل العربية لاتنفر منها بل تتبناها وتحتضنها .

٤ ـ تجربة كلية الهندسة بجامعة دمشق :

كلية الهندسة بجامعة دمشق كلية ناشئة أسست منذ خمس سنوات ، وتعهدتها السلطات الجامعية المسؤولة بالرعاية والعناية ، فلم تبخل عليها بالمال ولم تضن عليها بالتوجيه . ثم حصلت لها على منحة من الصندوق الخاص للامم المتحدة لتزويدها بالاساتذة والخبراء ، وتجهيز مخابرها بالآلات والادوات ، وامدادها بالمنح والايفادات . وتعمل الكلية متعاونة مع اليونسكو على اعـــداد طلابها ليساهموا في مشاريع البلد الهندسية ولسنا هنا في مجال الحديث عن الكلية ، **وانما أقول ان المفاوضات التي دارت مع الامم المتحدة أثارت موضوع لغة التعليم ، فنصح بعض الخبراء بتبني اللغة الانكليزية ، وعددوا الحجج والبراهين لدعم فكرتهم هذه الا ان كلية الهندسة ابت ذلك إباء شديداً ، ورفضته رفضاً باتاً، ولم تقبل اللغة العربية في التدريس شريكاً ، ولا عنها في التعليم بديلا.** ولكنها ادركت ان الحفاظ على تدريس الهندسة باللغة العربية ، وادراك الفائدة

الموجودة في ذلك لا يتم الا بتزويد طلاب الهندسة بزاد متين كاف من اللغة الاجنبية ، فعكفت على تحقيق ذلك ونظمت لطلاب سنتها الدراسية الاولى (وهي السنة المسماة السنة الاعدادية) برنامجاً لتدريس اللغة الانكليزية **العلمية والهندسية** ، يقرأ فيه الطلاب خلال عام كامل ، وبمعدل اثنتي عشرة ساعة اسبوعية ، عدداً كبيراً من النصوص العلمية والهندسية الحديثة الهامة ، فيطلعون على المفردات التي تستخدمها علومهم ، ويسمعون بقضايا التطورات الحديثة في اختصاصاتهم المقبلة ، مشروحة في مقالات كتبها بعض كبار المختصين العالميين في هذه المواضيع ، وأعدوها خصيصاً لجمهرة القراء المثقفين ، فجعلوها في لغة جذابة واسلوب واضح بعيد عن الصعوبة والتعقيد وانتقت الكلية لتنفيذ برنامجها هذا عدداً من افضل مدرسي التعليم الثانوي ، وتكرمت وزارة التربية فندبتهم للكلية ، فانصرفوا الى العمل واتقنوه . وقسمت الكلية طلاب السنة الاعدادية فيها الى زمر صغيرة (في كل منها عشرون طالباً أو نيف) ، وجعلتها زمراً متجانسة ، لطلابها معرفة مسبقة متقاربة باللغة حتى لا يمل القوي الافراط في الشرح للضعيف ، ولا ييأس الضعيف من ارتفاع المستوى وجعله مناسبا للقوي فقط .

والكلية ماضية في هذا السبيل منذ السنة التالية لتأسيسها ، وهي تعمل جاهدة على تحسين الطريقة عاما بعد عام ، متلمسة الأخطاء فيها لتتجنبها ، وباحثة عن النقاط الحسنة لتدعمها وتقويها .

وقد اقترحت حلولا عملية لزيادة التجانس بين الطلاب المقبولين في الكلية من حيث معرفتهم المسبقة باللغة الانكليزية ، وتأمل ان تلبي السلطات الجامعية المسؤولة حاجتها ورغبتها . وكذلك تأمل ان تتوسع في العام المقبل ان شاء الله في استخدام الطرق الصوتية الحديثة في تعليم اللغة الانكليزية .

وتصل الغالبية العظمى من طلاب الكلية الى معرفة مرضية باللغة

الانكليزية بعد انتهاء سنتهم الاعدادية ، فيرجعون منذ السنة التالية الى امهات الكتب العلمية والهندسية المكتوبة باللغة الانكليزية ، ويدرسون فيها دراسة مجدية مثمرة ، ويستمعون الى محاضرات الاساتذة الاجانب خبراء اليونسكو فيفهمون عنهم ويتعلمون منهم . ولسنا ندعي ان التجربة ناجحة كل النجاح ، ولكنها خطوة اولى في طريق طويلة شاقة ، ولعلها تتسع حتى تشمل الكليات العلمية في الجامعة ، فتتحسن بفضل ما تلاقيه من تجارب مختلفة وافكار جديدة ومساهمات متعددة .

٥ ـ خلاصة وخاتمة :

لعل خير ما ألخص به كلمتي هذه هو ذكر التوصية التي توصلت اليها الحلقة الدراسية الاقليمية لتعليم الفني التي نظمتها اليونسكو في طرابلس بليبيا في شهر نيسان من العام الحالي ، وحضرها ممثلون من البلاد العربية جميعاً وبعض بلاد الشرق الاوسط غير العربية ، وقد جاء في هذه التوصية :

« ان تدريس المواضيع الفنية في جميع المراحل بلغة البلاد الوطنية أمر هام لايجاد الجو المناسب للابحاث العلمية والنمو الفني والتكنولوجي . وينبغي السعي الى تأمين الظروف اللازمة لهذا التدريس . الا أن ذلك لايجب أن ينقص أبداً من أهميـــة تدريس اللغات الاجنبية للمهندسين ، فهو أمر متعارف عليه في العالم بأسره » .

ولا يسعني في الختام الا ان اكرر شكري لمجلة « المعرفة » وللقائمين عليها ، لفتحهم باب المناقشة في هذا الموضوع الهام ، والا ان أعبر عن تقديري واحترامي للسادة الزملاء الأساتذة الكرام الذين شقوا الطريق وشجعوني على أن اسهم بهذا الجهد المتواضع . واني لأرجو ان يتد الاهتمام به الى اوسع الأوساط الجامعية ، وان تتعمق المناقشة وتغنى ، حتى يتولد من احتكاك الأفكار وتفاعلها بعضها الحل السليم الراشد الذي يضع اللغة العربية في مكانها الصحيح .

العرب في آسيا الوسطى

تحقيق لمحمد جميل بيهم

ما كنت أتوقع قبل سنين عشر أن لقومنا العرب بقايا في تركستان وسائر أواسط آسيا لذلك كانت مفاجأة لي حينما سمعت المستشرق السوفييتي تسرتلي يقول ، في المحاضرة التي ألقاها في الندوة اللبنانية ببيروت خلال شهر نيسان سنة ١٩٥٦ ، أن هناك في آسيا الوسطى السوفييتية آلافاً من الناس يتكلمون اللغة العربية ويرجح أنهم من أصل عربي .

وقد أثار بي هذا النبأ حب الاستطلاع في هذا الموضوع فرجعت الى الكتب العربية

أبحث فيها على أمل أن أجد تحقيقاً أوفى ، وبعد أن تصفحت كثيراً من المؤلفات القديمة والجديدة عثرت على شيء من ذلك يؤيد هذا الخبر ، بيد أنه يرجع الى عهد قديم .

رحلة مسعر بن المهلهل الى بلاد الترك والصين

فقد روى ياقوت الحموي المتوفى سنة ٦٢٦ ه ، أي في القرن الثالث عشر للميلاد ، في كتابه معجم البلدان ، نقلًا عن مخطوطة لأبي دلف مسعر بن مهلهل ، وصفها بأنها عتيقة ، أن هذا عثر في رحلته الى بلاد الترك والصين والهند على قوم من العرب هم من بقايا الفاتحين . وقد استهل هذه الرحلة بما يلي :

« ولما نبا بي وطني ، ووصل بي السير الى خراسان ضارباً في الأرض ، أبصرت ملكها والمرسوم بامارتها نصر بن أحمد الساماني عظيم الشأن ، كبير السلطان ، يستصغر في جنبه أهل الطول ، ويخف عنده موازين ذوي القدرة والحول ، ووجدت عنده رسل قالين بن الشخير ملك الصين راغبين في مصاهرته ، طامعين في مخالطته ، يخطبون اليه ابنته . فأبى ذلك ، واستنكر لحظر الشريعة له. فلما أبى ذلك راضوه على أن يزوج بعض ولده ابنة ملك الصين ، فأجاب الى ذلك فاغتنمت قصد الصين معهم » .

ثم شرع مسعر يتحدث عن رحلته في بلاد الترك الواقعة وراء النهر في طريقه الى الصين ، فوصف أحوال قبائلها ، وأديانهم وعاداتهم ، محدداً الأيام التي قضاها عند كل منها ، ومدة المسافات التي اجتازها بين كل قبيلة واخرى ، فذكر تباعاً الخركاه والطخطاخ ، والبجا ، والبجناك ، والجلل ، والبغراج . وقال عن هؤلاء « ولهم ملك عظيم الشأن يذكر أنه علوي ، وأنه من ولد يحيى بن زيد . وعنده مصحف مذهب على ظهره أبيات شعر رثى بها زيداً . وهم يعبدون ذلك

المصحف . وزيد عندهم ملك العرب ، وعلي بن ابي طالب ، رضي الله عنه ، عندهم إله العرب ؛ لايملكون عليهم أحد إلا من ولد ذلك البفراجي المشار اليه » (١) .

وبعد ذلك مضى مسعر يتحدث عن سفره مع صحبه من بلاد هذه القبيلة الى التبت وقبائل الغز فالتفزغز فالخرخير حتى بلغوا منازل الخرلج . وقال عن القبيلة الأخيرة : « والزنا بينهم كثير غير محظور . وهم أصحاب قمار ، يقامر أحدهم غيره بزوجته وابنه وابنته فالمقمور أن يفادي . فاذا انصرف المقامر فقد حصل له ما قمر به يبيعه للتجار كما يريد . والجمـــال والفساد في نسائهم ظاهر . وهم قليلو الغيرة : فتجيء ابنة الرئيس فمن دونه ، أو امرأته أو أخته الى القوافل اذا وافت البلد فتعرض للوجوه . فان أعجبها انسان أخذته الى منزلها ، وأنزلتـه عندها ، وأحسنت اليه ، وتصرف زوجها وأخاها وولدها في حوائجه . ولا يقربها زوجها ما دام من تريده عندها الا لحـــاجة يقضيها » الى آخر ما قال عن هذه القبيلة .

ثم يوالي صاحب الرحلة حديثه عن القبائل الاخرى التي زاروهـا بعد الخرلج المذكورين وذلك ابتداء من الخطلج ، التي ينوه بمحافظتها على العرض ، مروراً بالختيان فهي الى القُلَيب ، حيث يقول وهو بيت القصيد :

« ثم انتهينا الى موضع يقال له القُلَيب فيه بوادي عرب ممن تخلف عن تبـع لما غزا بلاد الصين . لهم مصايف ومشات في مياه ورمال . يتكلمون بالعربية القديمة لايعرفون غيرها ، ويكتبون بالحميرية ، ولا يعرفون قلمنا . يعبدون الأصنام . وملكهم من أهل البيت منهم . لايخرجون الملك من أهل ذلك البيت .

---

(١) لاتزال هذه الطائفة موجودة في تركستان حتى الآن، وهي فئة من الاسماعيليين.

ولهم أحكام في حظر الزنا والفسق . ولهم شراب جيد من التمر . وملكهم يهادي ملك الصين . فسرنا فيهم شهراً في خوف وتغرير . ثم انتهينا الى مقام الباب . وهو بلد في الرمل تكون فيه حجبة الملك؛ وهو ملك الصين . ومنه يستأذن لمن يريد دخول بلد الصين من قبائل الترك وغيرهم . »

ويختم صاحب الرحلة كلامه بالتحدث عن مدينة سندابل التي قال عنها بأنها قصبة الصين ، وهو يريد بذلك العاصمة ، (١) وقد وصفها أحسن وصف وأطراها ، وأثنى على مليكها . فقال عنه وعن الخطبة التي جاؤوا من أجلها : « فدخلت على ملكهم فوجدته فائقاً في فنه ، كاملا في رأيه . فخاطبه الرسل بما جاؤوا به من تزويجه ابنتـه من نوح بن نصر . فأجابهم الى ذلك ، وأحسن الي والى الرسل . وأقمنا في ضيافته حتى نجزت أمور المرأة ، وتم ما جهزها به . ثم سلمها الى مئتي خادم ، وثلاثمئة جارية من خواص خدمه وجواريه . وحملت الى خراسان الى نوح بن نصر فتزوج بها . »

مسلمون بالبرازيل في القرن التاسع عشر

وفيا أنا أقلب الكتب في التحقيق عن العرب في آسيا الوسطى وقع نظري على خبر مماثل في الغرابة ، وهو وجود طائفة من المسلمين بالبرازيل في اواخر عهد السلطنة العثمانية . وهو موضوع وان لم أكن أتحرى عنه الا أنه جدير بأن يذكر في هذا المقال لطرافته ، ولأن هؤلاء قد يكونون من العرب .

ففي كلام الشيخ محمد بيرم التونسي المتوفى سنة ١٨٨٩ عن البرازيل وذلك في كتابه « صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والاقطار » قال :

(١) لعلها كانت عاصمة لاحدى امارات الصين الغربية .

« ويوجد فيها الاف من المسلمين أصلهم من سودان أفريقية ، ولكنهم لا يعلمون الا كليات الديانة على سبيل الاجمال . كما يستفاد ذلك من رحلة عبد الرحمن بن عبد الله البغدادي الذي كان اماماً في بعض السفن المدرعة العثمانية . وسافرت السفن الى البصرة على طريق البحر المحيط الغربي وذلك قبل فتح قناة السويس على بوغاز (جبل طارق) ، وصادفتهم زوابع اضطرتهم من غير قصد الى شطوط البرازيل . ولما خرجوا الى التفسح في البر أقبل عليهم اقوام مسلمون، وطلبوا ابقاء الامام عندهم لتعليم الديانة . فبقي هنالك مدة ، وألف رحلته المختصرة المترجمة الى التركي المسماة « مسلية الغريب » . وكان سفره سنة ١٢٨٢ هجرية . ولا يبعد أن تكون في جميع أمريكا أمم كثيرة من المسلمين ، ولا يجدون من يهديهم . ولا حول ولا قوة الا بالله » . اه

تحقيقاتي الخاصة بروسيا والصين وتحقيقات المستشرقة بارميشينا

زرت الاتحاد السوفياتي والصين الشعبية في عام ١٩٥٧ فكان همي هناك التحري عن كل ما يمت بصلة الى العروبة والاسلام سواء أكان ذلك في النواحي التاريخية أم الحاضرة . ولما عدت أصدرت كتاباً يتضمن مشاهداتي ومطالعاتي وملحوظاتي بعنوان « الأتحاد السوفياتي والصين الشعبية كأنك تراهما » . وكان بودي أن أزور وقتئذ جمهورية اوزبكستان أيضاً للتحقيق عما سمعت وقرأت في صدد وجود فلول من العرب في أرجائها ، ولكن حال دون هذه الامنية ما ذكرته في هذا الكتاب من صرفي عن هذه الزيارة الى (جمهورية أذربيجان لأسباب سياسية غلفت بمبررات أخرى . على أني علمت وأنا في موسكو أن أحد معاهدها العلمية عكف على دراسة هذا الموضوع بالذات ، وأنه نظم بعثة دراسة لهذه الغاية برئاسة المستشرقة السيدة ب. بارميشينا .

وتقول هذه المستشرقة : « ان المؤرخين لم يتوصلوا بصورة أكيدة الى معرفة متى وكيف وصل هؤلاء العرب الى اراضي آسيا الوسطى . فبينما يزعم بعضهم بأنهم ادخلوا اليها على يد تيمور أمير بخارى روى آخرون أنهم جاؤوها قبل ذلك مع الفتح الاسلامي » . وأما علماء الأقوام من السوفييت فيعتقدون « أن الجماعة العربية في تلك الديار وصلت اليها خلال عهود مختلفة ، ومن مناطق شرقية متعددة . وحجتهم في ذلك الفارق الموجود بين اللهجتين العربيتين اللتين يتكلم بها عرب آسيا الوسطى . الفارق الظاهر الذي يجعل كلامن العرب القاطنين في بخارى وما حولها والمقيمين في مجرى نهر كاشكا داريا الاسفل لا يفهم احدهما كلام الآخر اذا تكلم العربية . والسبب في ذلك على ما يقول علماء الأقوام ، يعود الى ان الأولين يتكلمون بلهجة صنعاء واليمن بينما الآخرون يتكلمون باللهجة الشيبانية . على أن لهجتهم جميعاً قريبة جداً من اللهجة العراقية ، وأحياناً تبدو قريبة من لهجة بدو شبه الجزيرة العربية . وعلى كل حال فليس من الصعب على المرء أن يميز بين هؤلاء وهؤلاء » .

وقد تبين لي ان عدد الساكنين بين الأوزبكيين والطاجيكيين والتركمان، أي في هذه الجمهوريات الثلاث ، آخذ في التناقص عاماً بعد عام . ففي سنة ١٩٥٦ قدر المستشرق تسرتلي في المحاضرة التي ألقاها ببيروت عـــدد المقيمين منهم في اوزبكستان بثلاثة عشر الفاً ، ولكن احصاء السكان العام الذي جرى في الاتحاد السوفييتي سنة ١٩٥٩ لم يقدر بأكثر من ٥٤٠٠ فقط عـدد كل المقيمين منهم على المجرى الاوسط والاسفل من نهر زيرافان وعلى المجرى الاسفل لنهر كاشكاداريا ، وفي مدن بخارى وكارشي وكتا كورغان وقلياب. على أن الروس انفسهم يعترفون ايضاً بأن عدد هؤلاء العرب كان من قبل أوفر كثيراً منه الآن ، وأنه آخـذ في

التناقص . ويعزون اسباب تناقصهم الى التقارب الطبيعي بينهم وبين مواطنيهم ، ذلك التقارب الذي جعلهم يندمجون تدريجياً بأهل البلاد الأصليين ، وينسون لغتهم وتقاليدهم الخاصة . فقد كانوا ، الى وقت قريب ، بدواً يعيشون في شبه عزلة على تربية المواشي ، ولا سيما الأستراخان ، ويسكنون في أكواخ اللبن . أما الآن وقد اصبحت اوزبكستان القاعدة الرئيسية في الاتحاد السوفيتي لزراعة القطن[1] فانهم انصرفوا الى هذه الزراعة ، والى زراعة الكرمة ، وأخذوا يعيشون عيشة أهل الحضر في مناطق مأهولة . وبينما كانت ألبستهم على وجه عام مثل لباس البدو لاتتعدى قميصاً طويلا من قماش ابيض او مقلم وقلنسوة يعتمرها بعضهم على شكل عمامة ، فقد تحول الجيل الجديد الى لباس الطراز الأوروبي . ومع كل ذلك فان اكثرهم لم يتخلوا عن تربية الأنعام .

هذا مايقوله علماء الروس في اسباب تناقص عدد هؤلاء العرب ويمكن أن يضاف الى ذلك حرص نظام الحكم القائم على توثيق الوحدة بين الجمهوريات ، وعلى تعميم لغة الدولة .

هذا وقد اشارت مجلة الانباء السوفيتية في عددها الصادر في ٢٦ – ١ – ١٩٥٨ الى هؤلاء العرب وقالت انمئة اسرة منهم تقطن مدينة دجافغاري القديمة القريبة من بخارى في اوزبكستان . وأن الوثائق التاريخية تثبت ان هؤلاء العرب جاؤوا تلك الديار منذ اكثر من الف سنة . واصبح لهم نواب في مجلس السوفييت الأعلى لجمهورية اوزبكستان ، واعضاء في مجالسها المحلية » .

---

(١) بلغ انتاج القطن في اوزبكستان عام ١٩٦٥ ثلاثة ملايين وتسعمئة وثلاثة آلاف طن .

بعد هذه المعلومات التي استقيتها من المراجع الروسية عن العرب في جمهوريات الاتحاد السوفيتي في آسيا الوسطى رجعت بأفكاري الى رحلة ابي دلف مسعر بن مهلهل التي ذكرها ياقوت الحموي في القرن السابع للهجرة فتساءلت عما اذا كان صاحب هذه الرحلة قد تعدى في مسيره الى الصين ، هذه الجمهوريات ، ولا سيما طاجسكتان المتاخمة للصين ، الى بلاد اخرى فيها طائفة من العرب أم لا . فبدا لي في أول الأمر انه لم يفعل وذلك فيما اذا كان موضع القليب الذي وجد مسعر فيه عرباً يتكلمون اللغة الحميرية ، هو نفس قلياب الذي جاء ذكره في الاحصاء الروسي الأخير بيد اني رجحت فيما بعد أن يكون مسعر بن المهلهل قد وصل الى ابعد من حدود روسيا ، خصوصاً وانه ذكر التبت بين الاقطار التي زارها . وزادني ميلا الى هذا الترجيح ما كنت سمعت سنة ١٩٥٢ وانا في باكستان من أن طائفة من العرب لاتزال تقيم في شمالها ، ولا تفتأ تتكلم اللغة العربية بالاضافة الى لغة البلاد وكان للقرآن الكريم الفضل الأكبر في محافظتها كل المحافظة على لغتها وقوميتها .



الكتّاب والموضوعات

التفاعل الأدبي

بين المغتربين العرب والبرازيليين

للدكتور عمر الدقاق

١

ما كان لشخصية البرازيل أن تتضح ملامحها وتتماسك عناصرها في أعقـاب عصر الكشف وبداية مرحلة الفتح ، فقد كانت موزعة السمات باهتة المعالم وسط خليط متنافر من قوافل المهاجرين التي راحت تنصب عليها من أرجاء الأرض ، ولم يكن غريباً الا يقـع المرء بين اوائل المغامرين والحكام والعبيد والقباطنة والتجار على شاعر اوكاتب . « ولكن بعض السراة كانوا يكتبون في القرن الأول للفتح وعيونهم ترنو الى لشبونة .. وفي منطقة باهيا

ظهرت مجموعة من الشعراء والكتاب كانت تقرأ أدب البرتغال كما تقرأ شعراء النهضة الايطالية والاسبانية [1] ».

ثم بدا للجيل المتحفز في القرن التاسع عشر ان الحياة البرازيلية في معظمها مستعارة وغريبة وغير قومية ، وانه آن الأوان لاستواء الشخصية البرازيلية الضائعة وتكوين كيان أدبي مكين بعد ان استقر الكيان السياسي واستقلت البرازيل عن البرتغال [2] ، ومنذ هذا الحين يدخل الفكر البرازيلي مرحلة القومية الحقيقية وتتضح نهائياً ملامح الخليط العرقي الجديد . ومع ذلك فقد ظل سلطان الآداب الاوربية يبسط جناحيه فوق ربوع البرازيل ؛ « حتى اننا نكاد نرى المدارس الادبية بتسلسها التاريخي المعهود تنبت على ارض البرازيل وتتجسد في هذا اوذاك من الكتاب والشعراء ، حتى كأن البرازيل التي لم تكن في اوربا جغرافيا كانت في الفكر منها [3] » . وكانت فرنسة خاصة هي المثال المرموق .

أما الثقافة العربية التي تحدرت بقاياها من المهاجرين الاسبان والبرتغاليين ، ثم هاجرت مع العرب انفسهم من بعد ، فلم تتبوأ تلك المكانة المرموقة التي كانت تنفرد بها الثقافة اللاتينية في امريكة الجنوبية . ولم يكن هذا الاحتكار الثقافي يروق عدداً من رجال الفكر البرازيلي وفي مقدمتهم الكاتب الكبير جورج آمادو اذ يقول [4] « ان الدم العربي قد لعب دوراً من اكبر الادوار شأناً في

---

(١) شاكر مصطفى : مختارات من القصص البرازيلي ، المقدمة ١٣ .

(٢) استقلت البرازيل بعد نضال مرير عام ١٨٢٢ ، ثم اقامت النظام الجمهوري عام ١٨٨٩ وقد عاد الامبراطور بدرو الثاني مع اسرته الى الشبونة بعد سقوط النظام الملكي.

(٣) شاكر مصطفى : مختارات من القصص البرازيلي ، المقدمة ١٩ .

(٤) تخالة وره : مختارات من القصص البرازيلي ٣ .

ديمقراطيتنا العرقية ، وفي مساهمتنا بالثقافة العالمية ، وفي نزوعنا الانساني . ومن المؤسف انه مازال سائدة في بعض الأوساط الفكرية البرازيلية تلك العقلية الاستعمارية Colontal التي تركتنا متجهين فقط الى باريس كأن كل ثقافة العالم هناك ، واسوأ من ذلك حين يكون المنار لشبونة ، كأنما الأرومة البرتغالية هي وحدها التي تطبع نضجنا الثقافي .. ومع هذه الرابطة العميقة ماالذي يعلمه احدنا عن الآخر ؟ ما الذي نعلمه عن ارومتنا العربية ؟ اننا في حاجة الى تبادل حقيقي مع تلك الثقافات التي تمازجت لتخلق ثقافتنا ومن بينها الثقافة العربية العظيمة » .

والواقع ان بواكير المعالم العربية في القارة الامريكية ترجع الى فئة من العرب السباقين الى العالم الجديد ممن رافقوا قوافل الاسبانيين والبرتغاليين [1] الى استعمار امريكة ومن آثارهم حجر موجود في مدينة أوغستين نقشت عليه عبارة (بسم الله الرحمن الرحيم) ، «وفي مدينة (لبريدو) بالمكسيك مئذنة مربعة الأطراف (على الطراز المغربي) نقش عليها من جهاتها الاربع عبارة (لاغالب الا الله) [2] » . وكان لافريقية السوداء ارث ضخم في الشمال البرازيلي حيث الأدب هناك اكثر أصالة . فأولئك العبيد الذين تكدسوا في اسفل المراكب ليباعوا في (باهيا) انما حملوا من مناطق شتى في القارة الافريقية ، لايملكون إلا سواعدهم القوية وارثهم الحضاري . « كانوا في جانب منهم مسلمين ، وفي زرائبهم كانوا يقيمون الصلاة ، وكانوا في جانب منهم يتكلمون العربية أيضاً ، ويتفاهمون

---

(١) مجلة « المعرفة » ك١ ، ١٩٦٣ ، مقالة « الوجود العربي في البرازيل » للاستاذ شاكر مصطفى .

(٢) يوسف العبد : جولات في العالم الجديد ٢٤٣ .

بها تحت انوف مالكيهم ، ويكتبون بها الرسائل لأسيادهم الأميين . وكانوا في جانب منهم صناعاً ، فمن صنع ايديهم بعض تلك الكنائس التي سجلوا في السقوف الخشبية الداخلية من قبابها بعض آي القرآن الكريم ..» (١) وقد ذكر ليوويز Leo Wiener في كتابه (افريقية و كشف امريكة) مقاطع اثبت فيها وجود كلمات عربية في كلمات هنود امريكة . وقال (٢): « ان من هذه الكلمات ما يرجع الى عام ١٢٩٠ أي قبل وصول كولومبس بقرنين » . « وكم يلاحظ المرء في حلبة السبق في البرازيل ان كثيراً من الخيل قد اطلق عليها اصحابها البرتغاليون اسماء عربية (٣) » كما ان كلمات عربية لا حصر لها تدور على ألسنة القوم في امريكة الجنوبية وترجع بنسبها الى لغة الضاد ، من نحو كلمة الاستحسان « اوليه » وهي ليست سوى كلمة « الله »، أو كلمة (اوشالا) واصلها (إن شا الله) ..وما الى ذلك مما تركه عرب الأندلس في لغة سكانها الاصليين ..(٤).

ولعل اللبنة الثقافية العربية الأولى التي ركزت ... في البرازيل كانت مجموعة قيمة من كتب العرب محفوظة في المتحف الامبراطوري في (بتروبوليس)، فقد اهديت الى الامبراطور بدرو الثاني - اثناء زيارته الشرق - من قبل احمد فارس

---

(١) شاكر مصطفى : مجلة « المعرفة » عدد كانون الاول ١٩٦٣ ، مقالة الوجود العربي في البرازيل .

(٢) فؤاد صروف : الرواد ٦٩ .

(٣) يعقوب العودات : الناطقون بالضاد في امريكا الجنوبية ٢٧ .

(٤) عني بعض الباحثين واللغويين العرب في المهجر بالكشف عن هذه الالفاظ ونشروا منها جداول لا تحصى ويكاد يلفظها البرتغاليون بنصها العربي مثل كلمات : السد والديب والبقر والخياط والفرس والفارس والفرجة والغار والجبة والمرج والمنارة والمظلة والبحيرة والقصر والطاحونة والرئيس والريف والسكر والرز ... الخ ..

الشدياق في الاستانة ، ومن قبل الشيخ ابراهيم اليازجي في بيروت الذي سجل عليها اهداءه شعراً بقلمه ، وكان ذلك الامبراطور يعرف العربية (١) .

- ٢ -

ان تعايش اقوام مختلفة على ارض واحدة لا بد له بالتالي – وفقاً لقوانين علم الاجتماع – من أن يستتبع تفاعلا في سائر مظاهر النشاط الانساني ، ويؤدي الى تبادل ثقافي وتمازج فكري .

وما كان لغير ذلك ان يحدث ايضاً بين الجالية العربية وسائر الاقوام في المهجر البرازيلي ، وبخاصة بعد ان بلغ التفاعل الاقتصادي والتجاري منزلة باهرة. ويبدو ان ثمة عوامل عاقت هذا التقارب في بادىء الأمر ، اذ ان دخول العرب مهاجرهم وهم يحملون التبعة العثمانية لم يبوئهم منزلة عالية في نفوس سائر القاطنين. ولهذا كان لقب (توركو) الذي ألصق بالعربي في مهاجره ينطوي على قدر من المهانة والازدراء ، وكان من جهة اخرى يحز في نفس المغترب العربي ، وهو لم يغترب ويتحمل مرارة الهجرة في كثير من الاحيان الا ليخلع عنه ربقة التسلط التركي وينشد العزة القومية، ولم يكن يخطر بباله ان هذا اللقب البغيض سيطارده في العالم الجديد . ولولا هذا اللبس لكان للعرب شأن آخر بين سائر الجاليات منذ ان وطئت أقدامهم ارض المهجر ، فالعنصر العربي بحضارته وعراقتـــه لم يكن مجهولاً لدى سكان امريكة اللاتينية بوجه خاص لأن غالبيتهم من أصل اسباني او برتغالي ويمتون الى العرب الاندلسيين بأوشج الاواصر . ولم تلبث هذه الحال ان

(١) انظر في ذلك اكرم زعيتر في كتابه : مهمة في قارة ٣٧ ، ويعقوب العودات: الناطقون بالضاد في اميركا الجنوبية ٨١ ، ٢٥٩ .

تبدلت وفتح البرازيليون صدورهم للعرب الذين استطاعوا بجهدهم وذكائهم ان يغدو عنصراً فعالا في المجتمع البرازيلي ، وان يسهموا الى حد كبير في اقامة صرحه وتعزيز نهضته[١].

ولعل في رأس مظاهر الحياة الثقافية في البرازيل تلك الحركة الناشطة التي تجلت في الترجمة من البرتغالية واليها بما كان له فضل في زيادة تفاعل الفكر العربي البرازيلي .

١ ـ ففي مضمار التعريب والترجمة عن البرتغالية كان اكثر هذا الأدب المترجم قصصياً وأقله شعريا ، ولعل مرد ذلك الى سهولة ترجمة النثر وصعوبة تعريب الشعر ، بالاضافة الى مايفتقر اليه الأدب العربي من النتاج القصصي وما استقر في اذهان شعرائه من غنى الشعر العربي واصـــالته . فمن الكتب الاجتماعية القليلة نسبياً الكتاب الذي ترجمه جرجي الحداد وعنوانه « المسيح لم يوجد قط »[٢] وفي المضمار القصصي ترجم نظير زيتون « مركيزة سانطوس » وترجم اسكندر كرباج « شهيد الجلجلة » وترجم يوسف البعيني اقصوصة « كن ثلاث اخوات » لجورج أمامو[٣] . . .

---

(١) لم يبلغ العرب في أي مهجر مابلغوه في البرازيل من مجد سياسي واقتصادي واجتماعي وادبي ، فهم يملكون مايقارب ٤٠ بالمائة من اقتصاد البلاد ولهم في المجلس النيابي الاتحادي ٧٩ نائباً من اصل ٤٠٠ وسميت في سان باولو بعض الشوارع باسم نبهائهم مثل جرجس عزام ، ونعمه يافث .. وكان من ذلك تأييد شعبي ورسمي لقضايا العرب في منـــاسبات عديدة يضيق المجال عن ذكرها ولكن هذا المد آخذ في الانحسار .

(٢) انظر مجلة العصبة عدد تشرين الثاني ٩٤٨ ص ٥١٤ .

(٣) المصدر السابق .

و كثيرأما عمد العرب الى ترجمة الآثار الفرنسية او الانكليزية عن الطبعات البرتغالية كما فعل نظير زيتون في رواية « النبي الابيض » الانكليزية واسكندر كرباج في رواية « غرازييلا » الفرنسية . وكانت آثار الحركة الرومانسية هي المفضلة ، وقد نشرت اقاصيص كثيرة منها في مجلات الاندلس الجديدة والشرق والعصبة وسواها ، كما كان بين المهاجرين وبخاصة من اعضاء « العصبة الأندلسية » عدد غير قليل ممن اتجهوا الى التعريب عن الفرنسية مباشرة تبعاً لتفقههم بهـا في مدارس لبنان التي كانت تقيم للثقافة الفرنسية شأناً كبيراً . وقد عربوا وكتبوا كثيراً عن مـدام ريكاميه وجورج صاند وبلزاك وموسيه وموباسان وهوغو ولا مارتين وجيد (١) ..

اما المقالات والبحوث الاجتماعية التي نقلت عن البرتغالية فكانت كثيرة وهي منتشرة في صحف المهجر البرازيلي ومجلاته . وقد عرف بهـا فؤاد نمر وتوفيق قربان ويوسف البعيني واسكندر كرباج وموسى كريم وجورج ليان وجورج حسون وسلمى صايغ (٢) .. وجلهم من جماعة العصبة الاندلسية . ولعل ابرز مجموعة قصصية برازيلية هي التي عربها المغترب نخلة ورد وصدرت بعنوان « مختارات من القصص البرازيلي » . (٣)

واذا ما انتقلنا الى الشعر المعرب بدا لنـا ايضاً اهتمام المغتربين بالآداب اللاتينية وبخاصة الأدب الاسباني والفرنسي والبرتغالي . وقـد اقتصر النقل عن

---

(١) اكثر هذه البحوث والمقالات مبثوث في مجلة العصبة .

(٢) عرفت سلمى صايغ بتعريب جانب من الادب النسوي البرازيلي في مقالات كانت تبثها في مجلة العصبة ، ولعلها أول من فعل ذلك في المهجر .

(٣) اصدرتها وزارة الثقافة بدمشق عام ١٩٦٤ ، وقد توجها (جورج آمادو) بكلمة طيبة في العرب وثقافتهم ، وقدم للمجموعة ببحث قيم ضاف شاكر مصطفى .

الاسبانية على عدد معلوم من النماذج الشعرية من نحو قصيدة « هنا وهناك » التي عربها مؤسس « العصبة الاندلسية » ميشال معلوف وقصيدتي « الشوق » و« حب » اللتين عربها شفيق معلوف وهي جميعاً لشاعر المكسيك أمادو نرفو[1]. كذلك نقل فوزي معلوف بعض شعر فرنسيسكو فيلا سباسا ومنه قصيدة « أوّاه غرناطة »[2]

على ان ماعرب عن البرتغالية ، او بكلمة أدق عن الأدب البرازيلي، كان اضعاف هذا القدر ، فقد عرب رياض معلوف عدة قصائد للشاعر « غليرمي دو ألميدا » والشاعر «مينوتي دليكيا » وهي قصائد ذات طابع رومانسي حالم[3] كما ترجم اسكندر كرباج خلاصة لملحمة هذا الشاعر دليكيا وعنوانها «جوكامولاتو»[4] وعرب يوسف البعيني قصيدة « اختراع الشيطان » وهي تدور حول المرأة للشاعر «فيستي دي كارفاليو »[5] ، وكان ممن نقلوا عن « اولافو بيلاك » شفيق معلوف في قصيدة « الشوق » وفوزي معلوف في قصيدة « الفينيقيون »[6] وعني شكر الله الجر بترجمة قصائد الغزل عن « فنتوريللي سيوبريتيو » ، وعن « اكتسيليو ازيفادو »[7] مثل قصيدة « عندماأنت تهجعين » و « البعث » . ويعد شفيق

---

(١) انظر على التوالي « في هيكل الذكرى » ١٢٢ ، و « العصبة »نيسان –أيار ١٩٥٣ ص ١٠٤ .

(٢) مجلة « الشرق » عدد ١٥ نيسان ٩٣٦ ص ١٢ .

(٣) انظر مجلة « الأديب » آذار ٩٤٧ ص ٢١ .

(٤) انظر مجلة « العصبة » عدد تشرين ثاني ١٩٤٨ ص ٤٧١ .

(٥) انظر مجلة « الاديب » نيسان ٩٤٩ ص ٧ .

(٦) انظر على التوالي مجلة العصبة : نيسان – أيار ٩٥٣ ص ١٠٤ وديوان فوزي معلوف ص ٣٣ .

(٧) انظر « زنابق الفجر » ١٠٨ ، ١١٣ .

معلوف أوفى الناقلين عن شعراء البرازيل ، فضلا عما نقله عن الفرنسية ، اذ نقل قصائد متنوعة لشعراء مثل أولافوبيلاك ولويس كارلوس دافونسيسكا واسكندر معلوف وكاسترو ألفيس ، وقد خص هذا الشاعر الكبير ألفيس بعدة قصائد من بينها « الشلال » و « منزل الآباء » و « العبقري » و « العشية » ..[1]

ومن بين القليل الذي ترجم عن الادب البرتغالي كان شعر « كامويس » كبير شعراء البرتغال الذي عربت له قصائد عديدة منها قصيدة « الزمان »[2] . ونحن لم نقع الا على النادر من اساطير الهنود اولئك السكان الاصليين من نحو « يارا » عروس الماء[3] التي تعيش في مياه الامازون ومجاهل البحيرات والتي ان غنت انجذب الى سحر غنائها كل حي ، وقد عربها الشاعر شفيق معلوف عميد العصبة الأندلسية :

زغردت يارا .. فدارت أعين في الدجى تسأل عن مخبأ يارا
واذا الماء عليه نبضة مشرئب ومجاديف حيارى
واذا أشرعة مطلقة في مجاري النهر مرخاة الأعنة

وعلى اللجة آهات وأنة
وجوى ينفث أشواقاً حرارا
ونداء هاتف ملء الدجنة
أين يارا

---

(١) انظر سنابل راعوث على التوالي ٤٧ ، ١٢٩ ، ١٦٠ ، ١٠٦ .
(٢) عربها جرجي قصاص ، انظر مجلة الشرق ٣٠ تشرين الثاني ١٩٣٢ ص ١٦.
(٣) انظر شفيق معلوف في ديوانه سنابل راعوث ١٠٢ .

غطست في النهر يارا . . واذا خلفها ظــل على الماء هوى
وطفا من بعــد لأي ممسكا طرف المجداف منهوك القوى
وارتمى الظل على زورقــه يتلاشى أنه من بعـد أنـة

واذا رغم الجفون المطمئنة
شفة تدمى . . وأهداب سكارى
وهتافات تدوّي في الدجنـــة
ويح يارا

واذا يارا على المـاء سنا دائرات تغمر الابصار فتنة
ومويجات لجــين رشقت من نجيات السماوات بجفنة
ان تسل من هي يارا ، انها عقدة من قصب الأنهر لدنة
هي تلظى في فم اللجة نارا وهي الجدر على الموجة وجنة

وهي الليــل حطى كانت قصاوى
كل ما في الليل من حسن لو انـه
جمعـــوه وكسوه بالدجنـــة
كان يارا

واغلب الظن أن مثل هــذه الاساطير كان سائراً على الألسنة دون ان يلقى اهتماما جادا بتدوينه .

ومهما يكن من ضآلة هذه النماذج المعربة فانها تشير الى أحد جانبي التفاعل الأدبي بين العرب والبرازيليين ، وهي على كل حال تتم كما قال جورج صيدح على انه « كان للترجمة مكان في ادب المهجر الجنوبي دون الشمالي ، فقد عني ادباؤنا في

البرازيل والارجنتين بنقل أشهر الآثار العالمية وعانوا بنجاح ترجمة الشعر الغربي شعراً عربياً وهي من أعسر المهام »[١].

ب ـ أما الجانب الآخر من هذا التفاعل الأدبي فقد تجلى في نقل كثير من الكتب والأشعار الى اللغة البرتغالية لتغدو بين متناول البرازيليين ، بل بين ايدي الكثيرين من المغتربين العرب انفسهم وايدي ابنائهم مما تحول اسباب كثيرة دون الوقوف عليها في لغتها الأصلية العربية .

ومن أهم مانقله المغتربون الى البرتغالية لغة موطنهم الجديد كتاب « كليلة ودمنة »[٢] و « مقدمة ابن خلدون » وهي في ثلاثة مجلدات ذات فهارس وشروح وافية[٣] و « تاريخ العرب » الذي ألفه فيليب حتي .. وقد نقل موسى كريم كتباً كثيرة منها كتاب « شعراء وخلفاء » ، « مصير الخلفاء الراشدين » ، « المتنبي » ، « المعري » ، « أبو نواس » ، « عمر بن أبي ربيعة » ، « مقدمة ابن خلدون » ، « رحلة ابن بطوطة » ، « رسالة دانتي ورسالة الغفران » « جبران » « قصص سورية » ، ثم ملحمة عبقر نثراً ، واخيراً كتاب « حدث في دمشق » الذي طبع للمرة السابعة والثلاثين . وقام سعيد البابا بنقل « هذا الرجل من لبنان » أي جبران لبربارة يونغ ، وجميل منصور الحداد بترجمة « نشيد الانشاد » و « رباعيات الخيام » .. الخ

---

(١) أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الاميركية ١٠٨ .

(٢) نقله راجي باسيل ، أنظر يعقوب العودات . الناطقون بالضاد ٣٨٦ .

(٣) أصدرها يوسف الخوري في نحو ١٥٠٠ صفحة انظر جريدة « الثورة » الدمشقية ١٧ ايلول ١٩٦٤ .

أما الشعر العربي وبخاصة ماصاغته قرائح الشعراء المغتربين في المهجر البرازيلي فقد كانت ترجمته الى البرتغالية صفحة ناصعة لأن الذين حرصوا على نقله في الغالب من البرازيليين انفسهم او سواهم من غير العرب . لقد نقل سلمون جورج نحوا من عشرين قصيدة من قصائد الشاعر القروي الى البرتغالية في مجموعة أسماها (حضن الأم) باسم القصيدة الأولى ، وقد انطوت على مقدمة ضافية[1] ، كذلك نقل سلمون جورج كثيراً من قصائد شفيق معلوف الغنائية ، والشاعر البرازيلي غيليرمي دي ألميدا - الذي نقل رياض معلوف بعضاً من شعره الى العربية - عمد بدوره الى نقل عدد من قصائد القروي الى البرتغالية مع تعليقات مسهبة عليها . كما نقل الى هذه اللغة ايضاً « هارولد داترو » مختارات من شعر فوزي المعلوف[2] .

على أن أثرين بارزين من آثار الشعراء العرب في البرازيل ظلا من الحظوة ما لا يكاد يدانيها أثر آخر لأديب عربي في الأوساط الغربية عدا ما كتبه جبران خليل جبران بالانكليزية ، وهما ملحمة « عبقر » وملحمة « على بساط الريح » . لقد ترجم موسى كريم ملحمة عبقر الى البرتغالية نثرا ، ونقلها اليها شعرا الشاعر البرازيلي جودس أزغورو غوتا عام ١٩٤٩ ، وترجمها شعرا الى الاسبانية الشاعر « فرنسيسكو فيلاسباسا »[3] كذلك حظيت ملحمة « على بساط الريح » باهتمام

---

(١) صدرت في البرتغالية عام ١٩٤٦ بعنوان Colo Materno أي حضن الأم وضمت من القصائد أيضاً اقحوانة إبرنكا ، سقوط اورشليم ، تحية الاندلس ، الدوحة الساقطة والغفران .. والمترجم شاعر كبير من أصل لبناني ولايفقه العربية وقد ساعده القروي في مهمته .

(٢) انظر ذكرى فوزي المعلوف ٣٦ .

(٣) شاعر اسباني مقيم في البرازيل وهو محب للعرب ويعد نفسه حفيداً للأندلسيين ، وقد ترجم قصائد غنائية اخرى لشفيق معلوف منها قصيدة « غرناطة » .

لاحد له بين ادباء البرازيل ، فبادر الشاعر « فيتوريللي سوبرينيو » الى ترجمتها الى البرتغالية ، ثم بادر « فرنسيسكو فيلاسباسا » ايضاً الى نقلها الى الاسبانية كما نقل له « شعلة العذاب » . وتعد المقدمة التي وضعها هذا المترجم لملحمة « على بساط الريح » والتي نشرت حسب الطبعات الثلاث البرتغالية والاسبانية والعربية آية في الجمال واشراق البيان .

ويبدو أن موجة الاعجاب بهاتين الملحمتين وبسائر النتاج الشعري للشعراء العرب في البرازيل قد سرت الى اقوام اخرى ، فنقل المستشرق « ماتينو ماريو موورينو » الى الايطالية مختارات وافية من شعر القروي والياس فرحات وشفيق معلوف وشفعها بدراسة عن كل من الشعراء الثلاثة وصدرت تباعاً في مجلته المشرق Levente [1] ، كما ترجم المستشرق الالماني كمفماير شيئاً من شعر شفيق معلوف أيضاً الى الالمانية ، بالاضافة الى آخرين نقلوا بعض قصائده الى « الفرنسية والانكليزية والروسية [2] ، فضلاً عما ترجم منها الى البرتغالية والاسبانية والالمانية. كذلك نقلت « على بساط الريح » الى لغات أخرى غير البرتغالية والاسبانية فقد ترجمها الى الانكليزية المستشرق جورج كفت والى الالمانية كمفماير والى الروسية كراتشكو فسكي والى الفرنسية فائز عون وأسعد محفل والى الرومانية أميل مرقدة .. » [3]

وما تقدم بوسعه أن يعطي صورة عن المدى الذي بلغه ذيوع الأدب العربي قديمه وحديثه خارج نطاق الشعوب العربية ، حتى انه « لم يبق شعب من شعوب

---

(١) صدرت الدراسات الثلاث أيضاً في كراسات ثلاث بالايطالية .
(٢) ذكر لي ذلك شفيق معلوف في رسالته المؤرخة ٢ أيار ١٩٦١
(٣) عيسى الناعوري : الأدب العربي في المهجر .

اميركا ؛ لم يقرأ كليلة ودمنة وألف ليلة وليلة وملحمة على بساط الريح منقولة من العربية »[1]وهكذا انفتح الفكر العربي عن طريق مهاجره على عوالم واسعة الأرجاء وأخذ يشق طريقه بقوة في زحمة الثقافات العالمية ليزيد التراث الانساني غنى ونموا .

– ٣ –

على ان المغتربين العرب في البرازيل لم يقفوا عند الحد الذي مر بنا في مضمار الترجمة قانعين بخطوات من يترجم آثارهم من الأجانب ويعرّفهم بالواسطة الى سائر الأقوام . لقد حطوا طوق اللغة الذي كان يعزلهم عن المجتمع الجديد وراحوا يعتمدون – بالاضافة الى لغتهم العربية – على لغة محيطهم البرازيلي ، بها يخطبون ويحاضرون ويؤلفون وينظمون . ونحن نجد في اخوانهم الشماليين نظراء لهم مثل جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة وأمين الريحاني وفيلب حتي الذين اتخذوا من الحرف الانكليزي وعاء لأفكارهم ومشاعرهم . لقد كانت سان باولو بؤرة الاشعاع العربي الاولى في المهاجر الامريكية ، وفيها صدرت كتب بالبرتغالية يفوتها الحصر ، اكثرها يرمي الى عرض منجزات العرب الحضارية على الناطقين باللسان البرتغالي في اوربة وامريكا من نحو كتاب «تاريخ الطب العربي وتأثيره في مدنية اوربا » ، و « تاريخ دمشق » ، و « العالم العربي » ، و«العرب قبل عصر التجدد » .. [2] او نحو « خلفاء بغداد » ، و « شعراء وخلفاء » ، و « حدث في دمشق » و « البرازيل والشرق » ، و « سورية ولبنان وفلسطين» ، و « تأثيرات

(١) جورج صيدح : ادبنا وادباؤنا في المهاجر الامريكية ١٠٨ .

(٢) هذه الكتب لجورج ليان وبعضها مازال مخطوطاً

سياحة » ، و « جبران » ..(1) أو نحو «لبنان وسورية » ، و « الشعوب العربية في القرن التاسع عشر » ، و « والسوريون واللبنانيون في البرازيل » ، و«تاريخ الصحافة العربيـــة في البرازيل » ، و « تاريخ الأدب العربي في البرازيل » ، و « أثر السوريين واللبنانيين في اقتصاديات البرازيل » (2) .. وما الى ذلك من مثل هذه المؤلفات .

وقد عني المغتربون العرب في البرازيل بتأليف المعاجم البرتغالية-العربية (3) وكان لهم اهتمام خاص بالبحوث اللغوية المقارنة « من مثل الموسوعة التي ألفهـــا فؤاد نمر في سبعة مجلدات، وقد تناول فيها تأثير اللغات الشرقية من عربية وفارسية وتركية في اللغة البرتغالية (4) . كذلك ألف راجي باسيل مترجم كليلة ودمنة « قاموس الألفاظ البرتغالية المشتقة من اللغة العربية » وقد صدرت منه ثمانيـة اجزاء (5) ولجورج اليان معجم برتغالي عربي من خمسين الف كلمة (6) ، ولتوفيق قربان بحوث عميقة في فقه اللغة المقارن وهو ذو دراية واسعة بعدد من اللغـــات وبتاريخ الحضارات (7) .

---

(1) كلها من مؤلفات موسى كريم .

(2) وهي من مؤلفات جبل صفدي .

(3) يذكر شاكر مصطفى ان اول معجم برتغالي عربي الفه في مدينة لشبونة البرتغالية كاهن نشأ وتعلم في دمشق خلال القرن السابع عشر ، « المعرفة » ك1 1963.

(4) مؤلفها من العصبة الاندلسية ، وصـــدر منها جزءان كما يذكر يعقوب العودات 367 .

(5) نشره سنة 1945 باللغة البرتغالية ، انظر يعقوب العودات 385 ، والاديب تشرين ثاني 1945 .

(6) مؤلفه من العصبة الاندلسية وكان استاذاً لكرسي اللغة البرتغالية في جامعة دمشق .

(7) هذا العالم من العصبة الاندلسية وقد شغل كرسي اللغة العربية بجامعة سان باولو.

وقد اتجه جانب كبير من هذا النشاط الفكري وجهة المحاضرات فانتشر العرب في كل مكان آهل في البرازيل يطلقون اصواتهم من فوق المنابر وفي دور الاذاعة وفي المحافل والمنتديات يخاطبون البرازيليين بلسانهم فيفتنون ألبابهم ويأخذون من نفوسهم كل مأخذ . ولعل حبيب اصطفان كان سيد الاداء الساحر بمحاضراته الشيقة عن التراث العربي [1] والقى شفيق معلوف محاضرات رصينة لعل اهمها دراسته المسهبة عن الف ليلة وليلة التي القاها في موتمر الآداب بسان باولو ومحاضرته الأخرى عن الأدب الغربي الحديث التي القاها في معهد الحقوق ومحاضرات أخرى لجورج ليان وتوفيق قربان وفؤاد نمر وسواهم ..

اما الصحافة البرازيلية فقد فتحت صدرها للكتاب العرب سواء في العاصمة او في الحواضر . من ذلك ان جريدة « الكوراير داماتيان » كانت بوقاً عدد من المغتربين في ريودو جانيرو وكانت لعقل الجر فيها مساجلات ذات طابع تاريخي مع بعض اعضاء المجمع العلمي حول فضل الفينيقيين الحضاري [2] . وقد عمدت بعض الصحف العربية في سبيل هذا الهدف الثقافي الى الصدور في شطرين بضمان صفحات عربية واخرى برازيلية ليتسنى لها الخروج الى محيط اوسع ، وتعد مجلة « الشرق » لموسى كريم في طليعة المجلات التي تجسد التبادل الثقافي على صفحاتها بأجلى معانيه ، وكثيراً ما تصدرت صفحاتها مقالات الكتاب البرازيليين وبحوثهم . من امثال سيسيلو لويز ، وهير كولا نوبيرس ، وكورايا جونيور ،

---

(١) انظر جورج صيدح في فصل مسهب عنه في الطبعة الثالثة من كتابه ادبنا وادباؤنا في المهاجر الاميركية، وقد نشرت محاضراته بالبرتغالية في البرازيل على نفقة الدولة.

(٢) انظر مقدمة ديوان عقل الجر ١١ .

واغربينو غريكو ، وأسيس شاتوبريان ، وفرنسيسكو بوينـــو .. وكانت محاضراتهم وكتاباتهم تدور في الغالب حول حضارة العرب والشعر العربي ..

واما اعلام الفكر البرازيلي الذين عنوا بدراسة الفكر العربي وقرائحه فقد اصبحوا كثراً بفضل اطلاعهم على نماذج رائعة من نتاج العرب قديمه وحديثه ولذلك عمدوا الى بث آرائهم على منابر الجامعات وصفحات المجلات . كان منهم النقاد البارزون أغربينو غريكو المعروف بسانت بوف البرازيل ، وكوريا جونيور ومينوتي دليكيا وجودس أزغوروغوتا وغليزمي دو ألميدا وغومير سندو فلوري ولويس آمارال .. واكثرهم تناولوا بالدراسة والتحليل الآثار الشعرية التي نظمها كبار الشعراء العرب .

وغدا طبيعياً ان يترك هذا التفاعل الفكري والاجتماعي اثره في حياة المجتمع البرازيلي ، اذ انعكست هذه الملامح في بعض ما انتجته قرائح الكتاب والشعراء في البرازيل ، ففي قصة « غابرييلا » أول قصة كبيرة لجورج آمادو تبدو شخصية « نسيب » العربي الى جانب شخصية البطلة « غابرييلا » التي لم تكن في الواقع الا امرأة مغتربة عربية (١) . وثمة معالم باهتة عن الشرق والعرب تلوح في نتاج بعض الشعراء الذين اتيح لهم أن يتأثروا – في حدود متفاوتة – بالفكر العربي مما يستأثر بجهد خاص .

هذا الفهم المتبادل كان له أثر كبير في ازدياد شأن العرب على الصعيدين الاجتماعي والسياسي تجلى في مواقف كثيرة مشرفة وقفها مع قضايا العرب القومية

(١) شاكر مصطفى : مختارات من القصص البرازيلي ٥١ .

صحفيون وسياسيون وشعراء وكتاب [١] ، ولم يأل المغتربون جهداً في مد يد الاخاء الى الشعب الذي فتح لهم نفسه ، فكانوا يشيدون بجميله في كل حين . وعندما احتفلت البرازيل بعيد استقلالها المئوي نصبت لها الجالية العربية تمثالاً عربياً مزجت رموزه حياة الشعبين المتحابين [٢] .

– ٤ –

ولا بد للباحث في نهاية المطاف من أن يتساءل عن مصير هذا الجيل من الأدباء المغتربين في البرازيل وبالتالي مصير الكيان العربي بكامله في وسط ذلك الخضم الأعجمي الطاغي . لقد قل بين المهاجرين الاوائل من كان يستطيع التفاهم مع من حوله دون الاستعانة بالاشارة والايماء ، ولم نلبث طويلاً حتى طلع علينا جيل استطاع بذكائه أن يتقن لغة وطنه الجديد دون أن يمس في شيء صلته بلغة آبائه . وانه من سنن التطور أن يختلف الجيل التالي عمن سبقه ، كما اختلف هذا عن السالفين ، فيقل حظه من رصيد آبائه ، على حين يزداد انغماراً في محيطه الجديد تحت وطأة البيئة ، فيختل بذلك التوازن الذي رأيناه وتغوص شخصية المغترب في الحياة البرازيلية بمقدار ما تخرج من دائرة الحياة العربية حتى يبتلعها المحيط الجديد. وهذا مصير طبيعي ومحتوم حين لا تتدخل ارادة الانسان في تغيير مجرى القوانين الاجتماعية وسنن التطور للحفاظ على اللسان العربي في ذلك المهجر القصي. وها قد جرت المقادير — في سوء الحظ — كما قدر لها أن تجري ، وكانت المأساة

(١) في مقدمتهم لويس آمارال الذي كانت له حملات عنيفة على الصهيونية في مقالاته ، وقد ألف لهذه الغاية كتاباً اسماه « عبيد التلمود » : Os servos do talmud كما ألف « لويس لامردا » كتاباً مماثلاً عنوانه (قضية فلسطين) .

(٢) مجلة الشرق ٢٠ كانون الثاني ١٩٣٥ ص ٣ .

الكبيرة ، فقد غلب المد الأعجمي على الأبناء العرب في المهاجر قاطبة . وكان جـديراً بجالية عربية كبيرة في سان باولو وسائر حواضر البرازيل ان تستطيع الابقاء على كيانها كما ابقت عليه جاليات وأقليات كثيرة في المهاجر وفي سائر بقاع الأرض . « وهكذا غدا الأبناء الذين ولدوا ونشأوا هناك في المغترب على الانداء الغربية هم الوجه الآخر المجهول للقمر » وأصبحنا لا نعرفهم وكيف نعرفهم وقد كاد ينكرهم آباؤهم أنفسهم الذين يشهدون الفصل الأخير من المأساة كل يوم بأسى عميق ، ان الياس فرحات يصور لنا تلك الحال التي يعانيها في شيخوخته فيقول بمرارة [1] :

وصلتنـــا بذوينـا لغـة | لم تصلنـا ببنينا الظرفـاء
كل حيوان حقير عـالم | بلغـــاه وبنونا جـهلاء
ان نقل قولاً فصيحـاً بينهم | رددوه بلسان البغـاء
ومضوا تحدجنـا أعينهم | وعلى الثغر ابتسامات ازدراء
خالطوا العجم فصاروا مثلهم | دأبهم للعرب اضمار العداء
نحن غرقى في خضم إنما | لغـة الضـاد سفين النجاء

وفي البرازيل اليوم جيل من المتحدرين لم تعد تشدهم الى وطنهم وقومهم ولغتهم سوى خيوط أوهى من خيوط العنكبوت ، فأعينهم لم تكتحل قط برؤية الوطن القديم ، ولم يقدر لهم بالتالي أن يعرفوا شيئاً من تراثه وعاداته ومثله ، أما اللغة التي أضاعوها فكانت أثمن ما أضاعوا من مقومات شخصيتهم العربية ، وحتى اسماؤهم العربية لم يبقوا عليها [2] .

---

(١) ديوان فرحات ١٩٧ .

(٢) اضطرت البيئة الكثيرين من المغتربين أن يستبدلوا اسماء برازيلية بأسمائهم العربية فانقلب حنا الى جوان وناصيف الى نارسيس وجميل الى جوليو ومركيس الى ميسيليو .

ولكن الجذوة جذوة الابداع لايمكن أن تنطفىء في النفوس النابغة ، فقد عرف الأدب البرازيلي أعلاماً برعوا في الشعر والنثر كما برعوا في مجالات العلم والاقتصاد والسياسة والصحافة .. لعل في مقدمتهم سلمون جورج وهو شاعر كبير وخطيب مفوه وعضو في البرلمان ،وقداتسمت مجموعته الشعرية «Arabescos زخارف عربية » بالطابع الشرقي والروح العربية ومن هـــذا القبيل أيضاً كتابه الآخر « مخيم صحراوي »[1] ، وقد عرف بقصيدته « البدوية » ويعد صنواً له جميل منصور الحداد الشاعر والقاص الشهير في البرازيل ، وقد صدر له بالبرتغالية ديوان « حبيبي القمر » ثم ديوان « الحاكم والشحاذون » وأخيرا « صلوات سوداء» الذي نال عليه جائزة الشعر من المجمع العلمي البرازيلي . وقد عرف بطولته الشهيرة « قصيدة الدم » ومطلعها :

« يابـــلاد العرب انـــك في ذاتي »
« على صورة صحراواتك يصاغ شعري[2] »

وفيها يقول : « لن تموت بـــلاد العرب في نفسي »

ومن أولئك الشعراء فرنسيسكو كرم وقد صدرت مجموعته الشعريةباسم « ساعة المتعة » وأسيس فارس صاحب ملحمة « الماسكاتة »[3] التي عبرفيها باسلوب قصصي مؤثر عن مأساة الهجرة العربية ، وهذا موضوع اساسي في حياة المغتربين قل أن عالجه شعراؤهم بقوة . ومنهم أيضاً ماريو شامية الشاعر الرمزي المبهم ،

---

(١) انظر مجلة العصبة ك١ ، ١٩٤٨ ص٦٠٧ وأصل الشاعر من آل سلامة باللاذقية .

(٢) شاكر مصطفى ، في محاضرة عنوانها « الأدب العربي غير العربي » ألقاها في حلب بتاريخ ١٨ تشرين الثاني ١٩٦٣ .

(٣) الماسكاتة : البائع المتجول ، وكان بداية المجد الاقتصادي لكثير من المغتربين العرب .

واسكندر معلوف نجل الشاعر شفيق معلوف وقد عرب له والده بعض القصائد ومنها « صيحة بدوي »(١) وأخيراً الكاتبة الاجتماعية هيلينا سلفيرا حداد(٢) .

أما الكتاب الروائيون فقد نبغ منهم أميل فرحات وهو من أقارب الشاعر الياس فرحات وماريو نعمة امين اكاديمية الكتاب البرازيليين ، ومثله نعيم أبو سمرة وسركيس غنام المعروف باسم سيسيليو كارنيرو وهو الذي كتب قصة الهجرة التي عاناها أبوه من قرية (تربل) في لبنان الى مجاهل البرازيل وقدنال عليها جائزة تقديرية . ولعل جورج مدور في طليعة الروائيين البرازيليين ، وقد نقل نتاجه القصصي الى عدد من اللغات وحظي بجوائز قيمة ، وهو صديق جورج أمادو ومن مدينته أيضاً باهيا(٣) .

كان هذا هو الجانب الآخر من أدب المغتربين العرب ، ان فيه الكثير من نفحات الشرق ومن عبير العروبة ، انه أدب عربي آخر غير عربي ينثرجواهره وينظم درره في تلك الأرض الغريبة النائية ابناء لنا ، ولكنهم – ويا للأسى – يصوغونه لقوم غير قومنا وبلسان غير لساننا .

---

(١) انظر سنابل راعوت ٢٤ ، ١١٧ .

(٢) ترجمت لها سلمى صايغ بعض نتاجها في مجلة العصبة .

(٣) انظر شاكر مصطفى ونخلة ورد : مختارات من القصص البرازيلي ص ٦٠ ، وقد ترجمت له في هذه المجموعة قصتان .

المعرفة الانسانية

للباحث الادبي جورج شتاينر

George Steiner

ترجمه عن الانكليزية محيي الدين صبحي

حين يتلفت الناقد وراءه لايرى سوى ظل التابع : فمن رضى أن يكون ناقداً إذا استطاع أن يصبح كاتباً ؟ ومن يستخرج الرؤية الداخلية المراوغة عند دوستويفسكي إذا امكنه أن يقتنص أثلة من كرامازوف ، أو أن يناقش هدوء لورنس إذا قدر أن يصوغ هبوب رياح الحياة في كتاب « قوس قزح » ؟

إن الكتابات العظيمة جميعها تنبثق عن « الرغبة الملحة في البقاء » اي عن الصراع القاسي بين الروح والموت بغية مسابقة الزمان بقوة الابداع « ومضات الوحي تأتي من السماء »

مخمس كلمات ويخيم بعدها صمت حزين ، لكنها تحدث ثلاثة قرون : فمن سيختار أن يكون ناقداً أدبياً اذا استطاع أن يقرض قصيدة تصلح للغناء ، أو ينشيء من وجوده الفاني رواية مليئة بالحياة وأبطالاً يصمدون للزمان ؟

ان الناقد يأتي في المكان الثـــاني . انه يكتب عن ... وعليه أن يتلقى الشعر أو الرواية أو المسرحية من الآخرين ، فالنقد يتلو وجود العباقرة ويستطيع النقد نفسه أن يصبح أدباً بفضل الاسلوب ، لكن هذا الأمر لايتم إلا إذا كان الأديب ينقد اعماله أو يكشف عن شاعريته ، كما فعل كولريدج و ت . س . ايليوت . وهل ثمة ناقد غير سانت بوف دخل عالم الأدب عن طريق النقد وحده ؟ فليس النقد هو الذي يجعل اللغة تحيا .

تلك الافكار ليست سوى حقائق بسيطة يستذكرها الناقد الشريف خلال كآبة الصباح الا أننا في السبيل الى نسيانها . فالعصر الراهن متهم بحب القوة وتنمية طاقة النقد الذاتي . ان المجلات الأدبية تطب فيضاً من الأحكام والتعليقات . وللنقد في امريكا مدارس تعلمه ويظهر الناقد كشخص له حقوق ، أما ابحاثه ومشاجراته فلها شعبية خاصة . ويكتب النقاد عن النقاد حول امر معين فيظن الشاب الناشيء انه اذا تتبع هذه المناقشات يصبح امرءاً ذا شأن ، بدلاً عن أن ينظر الى المسألة على أنها محاولة لتحديد موهبـــة ما . ثم يستغني براجعات المكتب عن قراءتها قبل أن يستوي له النضج أو يكون أحكامه الخاصة . وقليلون هم الذين لم يكتفوا بدراسة ايليوت عن دانتي بل رجعوا الى الكوميديا الالهية ليقرؤوها ويكونوا احكامهم عنها .

ان الناقد الحق خادم للشاعر ، بينما يتصرف اليوم وكأنه سيـــد له

يقوده أنى يشاء ، لقد نسي نقاد اليوم آخر وأهم درس لزرداشت : « والآن ، تصرف دون معونتي » .

ومنذ مئة عام بالضبط اكتشف ماثيو ارنولد الحافز النقدي بقوته وتدفقه ، فقد تأكد من ان حافز الناقد يأتي بعد حافز الكاتب ، ذلك ان متعة الخلق وأهميته تتولدان عن نظام اسمى بكثير من نظام النقد . لكنه اعتبر فترة النقد تمهيداً ضرورياً لمقدم عصر شعري جديد . لقد أتينا الزمان وقد هرم . هذا هو عصب الشرط الانساني الذي نعيش فيه . وقد أتينا على حطام آمال وقيم انسانية لم تعقب لها خلفاً بسبب وحشية السياسة في عصرنا .

هذا الحطام هو نقطة البدء لأي تفكير جدي في الادب ومكانته في المجتمع . ان الادب يتعامل بشكل اساسي مستمر مع صورة الانسان ومع أصناف ودوافع السلوك الانساني وسواء أنظرنا الى أنفسنا من حيث نحن نقاد أو كائنات عاقلة ، فاننا لانستطيع ان نتصرف بشكل طبيعي متجاهلين التغيرات الحيوية التي أصابت ادراكنا للامكانيات الانسانية .. لانستطيع ان نعمل وكأن مقتل سبعين مليون انسان في الحربين العالميتين ، لم يغير تغييراً جذرياً نوعية معرفتنا . ان مافعله الانسان بالانسان في أيامنا هذه قد أثر على المادة الأولية للكاتب من حيث نوعية السلوك الانساني وكيفيته وهو مايزال يضغط على أذهاننا بظلام جديد .

ان تأثير هذه العوامل بلغ حداً أبعد مما ذكرنا ، فهو يدعو الى اعادة النظر في المفاهيم الأولية للثقافة الأدبية الانسانية ، فقد تعاظمت البربرية السياسية ونمت في قلب اوروبا . وقد مضى قرنان منذ ان اعلن فولتير انتهاءها ، غير ان التعذيب أصبح من جديد طريقة طبيعية للعمل السياسي . ان انتشار القيم

الأدبية الثقافية لم يبرهن فقط على انه أضعف من ان يكون حائلاً دون التسلط ، بل ان لدينا شواهد عديدة على ان الثقافة الانسانية والفن قد رحبا به وعضداه ان البربرية اجتاحت مناطق الانسانية المسيحية وحضارة عصر النهضة والعقلانية الكلاسيكية ونحن نعلم ان الرجـــال الذين ابتكروا معسكرات او شويتز وأداروها قد شبوا على قراءة شكسبير وغوته ، وظلوا يقرؤونهما .

هذا مثال هام على قيمة دراسة الأدب وتعليمه وهو يضطرنا الى اعادة النظر في قول ماثيو ارنولد : « ان معرفة أحسن الأفكار والأقوال توسع ينابيع الروح الانسانية وتلطفها » . كما انه يجبرنا على التساؤل عمـــا اذا كان مايدعوه الدكتور ليفيز « الانسانية المركزية » تتثقف فعلا بالعمل الانساني او انه ليس بين مضمون الذكاء الاخلاقي المتطور بفضل الدراسات الادبية وبين ماتتطلبه مواقف الحياة الاجتماعي والسياسي ، هوة عميقة او تناقض . ان الاحتمال الاخير لمزعج حقــاً ، وتدل الشواهد على ان الاشخاص المدربين والمتآلفين بصورة دائمـــة مع الكلمة المطبوعة يتناقصون باستمرار ويفقدون القدرة على التآلف النقدي العميق مع الشخصيات الخيالية او عواطفها وبذلك يقل العنصر التأملي في الحياة وهو الطرف الحاد للظروف العملية . لقد اصبحنا نستجيب إستجابة دقيقة للأسف الأدبي بدلاً من ان نقرع أبواب التعاسة . وهنا ايضاً يعطينا الواقـــع أدلة قاسية فالرجال الذين بكوا لدى قراءة فرتر او سماع شوبان قد تردوا – دون ان يعرفوا – في جحيم حرفي .

وهذا يعني ان أي انسان يعلم الأدب او يفسره لابد ان يقف ويتساءل عما هو بصدده . لأن تعليم الأدب وشرحه تجربتـان تسعيان الى تشخيص حي متميز لاستجابتنا للكاتب . فالأخذ بيد القارىء خلال « الملك لير » او « اورستيا »

هو ان تضع في كفه نسمة حياته . وثمة افتراضات تعتبر قيم الثقافة الادبية بالنسبة للمفهوم الاخلاقي عند الفرد والمجتمع شهادة ذاتية لدى كل من جونسون و كولريدج وآرنولد . الا ان هؤلاء اصبحوا موضع شك . ويجب ان نعترف بأن دراسة الادب لم تعد سوى شيء كمالي ... ترف عاطفي يشبه اقتناء العاديات . او انه في أسوأ الظروف انشغال عن امور كثيرة . واكثر اهمية منه انني ارفض وجهتي النظر هاتين غير ان السؤال يجب ان يطرح وان يوجد له حل دون مراوغة . وما من شيء يثير القلق بالنسبة للدراسات الانكليزية في الجامعات اكثر من النظر الى هذا النوع من الاستقصاء على انه شاذ او هدام ، مع انه جوهري . فمن هذه الزاوية تستمد العلوم الطبيعية قوتها ، مستندة الى مقياسها التجريبي وتراثها في الانجازات المشتركة بعكس المظاهر الادبية التي تستند الى المزاج والرأي الشخصي وعبادة الذات . ويحاول العلماء ان يؤكدوا بأن افكارهم الخاصة ورؤيتهم العالم قد اصبحت الآن حجر الزاوية في الحضارة المعاصرة كما يؤكدون ان الأولية القديمة للحقائق الشعرية والصور الميتافيزيكية قد انتهى عهدها . وبالرغم من ان هذا الزعم غير مؤكد فان من الثابت ان احسن المواهب تنصرف الى العلم .

ان من ينظر الى رسوم (حركة الاربعمئة) في الرسم الايطالي سنة ١٩٢٠ يتمنى ان يتعرف على الرسامين واليوم نجد ان حسن الالهام المرح والعقل الحر واللعب الطليق ، بلازم الفيزيائيين والكيماويين الرياضيين . ولكي لانتخدع يجب أن نقر بأن العلوم تعني اللغة ومنابع الشعور . وقد أظهر لنا توماس مان في كتابه فيلكس كرل أن الفيزياء الفلكية وعلم الميكروبات سوف يقدمان المادة لأساطير المستقبل والتعابير لمجازه واستعاراته . ان العلوم سوف تعيد

تشكيل محيطنـــا ومضمون أوقات فراغنا أو الجوهر الذي تصبح بواسطته الحضارة ذات حيوية . ولكن رغم أن العلوم ذات خيال لا ينفد وجمال متعدد فان العلوم الطبيعية والرياضية قل أن تكون ذات أهميـــة قصوى . أعني انها لاتضيف الا القليل الى معرفتنا وسيطرتنا على النفس البشرية بحيث نجد من التبصر في أمور الانسان عند هومر وشكسبير ودوستويفسكي اكثر مما نجد في علوم الذرة والاحصاء . فليس من اكتشاف في علم الوراثة يعادل اويفوق ماعرفه بروست عن عبء السلالات ودورات خصائصها . وفي كل مرة نذكرنا عطيل بعفن الندى على النصل اللامع ، نخوض تجربة اكثر حسية واكثف واقعية بالموت المفروض على حياتنا مما يعلمنا اياه أي فيزيائي مهما كان طموحه ، ولا يزن اي مقياس للحوافز السياسية مثقال ذرة تجاه ستندال .

ان « الموضوعية » والحياد الاخلاقي اللذين يتيحهما العلم وتعيش فيهما جماعة العلماء المجهدين يمنعانهم من اي اختيار نهائي . فالعـــلوم قد تمنح أدوات ومظاهر جنونية مبررة عقلياً للذين يديرون مذابح جماعية لكنها قل ان تكشف لنا عن شيء من حوافزهم التي تصلح موضوعاً ليسمـــع عنه اسخيلوس او دانتي ولا تستطيع — اذا اردنا ان نحكم على التقارير السياسية الساذجة التي يقدمها الكيميـــائيون — أن تخفف من الآلام التي يحملها المستقبل . ان النور الذي نسلطه على شروطنا الجوهرية الداخلية ما يزال من صنع الشعراء .

ومما لاينكر ان اجزاء عديدة من المرآة قد تحطم وما تبقى غشاه الضباب فأهم الخصائص الذي تميز ادب اليوم هي تفوق الفنون غير القصصية — كالتحقيق الصحفي والجمل الفلسفية والتاريخ والتراجم والمقالات النقدية على اشكال التراث الروائي . فمعظم الروايات والدواوين والمسرحيات التي ظهرت في العقدين

الماضين تفتقد الاتفاق وعمق المشاعر اللذين يجعلان المخيلة تنساق وراءحافز الحقيقة فمذكرات سيمون دي بوفوار معجزات في التأمل النفسي والجسدي بينما تفتقد رواياتها ذلك . وقد كتب ادمون ويلسون أحسن نثر عرف في امريكا . وما من قصة ولا شعر وصف المخيمات المتكاثفة يمكنه ان يضاهي الحقيقة والعاطفة الشعرية التي يتضمنها التحليل الواقعي لبتلهايم في « القلب العليم » . فكأن سرعة عصرنا وسيطرة السياسة عليه وازدياد التعقيد فيه عوامل أدت الى سحب الثقة من سادة الرواية الذين اسسوا تراث الادب الروائي وقصص القرن التاسع عشر . و« العشاء العاري » وقصة اخرى لبونور أثران هروبيان . ان الادب الحديث يتجنب النواحي الانسانية الرئيسية او يسخر منها خلال أعمال الحب والسادية . وكلا الناحيتين تشير الى فشل الكاتب في الابداع . ومن يقرأ لصموئيل بيكيت يجد ان ابطاله يسيرون من الحياة المنطقية الى الحياة الدراسية . وفجأة يجد البطل نفسه وقد لصقت رجلاه بالارض وانفغر فوه ووقف يحدق في الجمهور دون ان يقول شيئاً . لقد امتلأت مخيلة الفنان بالرعب من خلال الفزع الجديد الذي يجتاح البشرية . ولم يسبق للشعر من قبل أن مال الى الصمت كما يميل اليه في عصرنا . وفي هذا الجو من الصمت والشكوك يظهر دور النقد المتواضع والحيوي في ثلاثة حقول .

* * *

الحقل الاول هو حقل الاختيار . فالنقد يدلنا على ما ينبغي ان نعيد قراءته . ان الادب عالم واسع وما يزال الانتاج الجديد يضغط علينا فعلى المرء ان يختار وهنا تتجلى فائدة النقد . وهذا لا يعني ان على النقد ان يتحكم بمصير الأدب ويقتصر على اعمال حفنة من الكتـــاب وكأنها شيء منزل ثم يستثني

الآخرين ويستعبدهم . فالنقد الجيد يتميز بانه يشق الدرب امام الكتب الجديدة اكثر مما يسدها . وهذا يعني ان النقد سوف يسلط النور على التراث المحير ويستخلص منه كل ما يتجه الى الحاضر بشكل صحيح ومباشر .

وهذه المهمة هي الحد الفاصل بين النقد وبين تاريخ الادب او علم اللغة . ان للنص في نظر عالم اللغة قيمة بذاته فهو يرى فيه قيمة لغوية او تاريخية ذات دلالة مستقلة بذاتها . اما الناقد فانه حين يستفيد من فهمه العلمي لمعنى النص وصحته ، عليه ان يختار ويجب ان يرجح كفة اختياره للنص الذي يخاطب الحياة .

كل جيل يختار ما يلائمه ، لذلك نجد ان هناك شعراً خالداً لكننا لا نجد نقداً خالداً . ولكل شاعر دور في تاريخ الأدب ثم يقع في غيابة النسيان وأذكر — حين كنت أدرس في فرنسا قبل الحرب العالمية الثانية — ان النقاد الأكاديميين كانوا يعتبرون فرجيل مقلداً فجاً لشعر هوميروس، ولكن بعد نكبة فرنسا وما عاناه الفرنسيون من هرب ونفي تغيرت وجهة نظرهم تلك تغيراً جذرياً وصاروا يرون في فرجيل الشاعر الناضج الذي كان شاهداً على عصره . ان الزمان — سواء أنظرنا اليه على الصعيد الفردي او على المستوى التاريخي - يغير وجهة نظرنا في شكل الفن ومضمونه . وهناك دائماً شعر الشباب ونثر الكهول ، فالحالمون يبتعدون دائماً عن البؤرة المركزية لأن تبشيرهم بعصر ذهبي يتعارض تعارضاً يثير السخرية مع تجربتنا العملية . ان الأدب في القرن السادس عشر وبواكير السابع عشر قريب منا بالرغم من لغته المعقدة . وبوسع النقد ان يبين لنا مدى تأثر الكتاب المعاصرين بالماضي - فنجد على سبيل المثال ان ديدرو وراء أفضل

الكتاب الفرنسيين المحدثين – وبذلك يذكرنا تغير احكامنا بأن آراءنا ليست بديهيات لا تدحض ولا قضاء لا ينقض .

ان النـــاقد العظيم هو الذي « يشعر رأساً » ، أي يضطجع على الأفق ويهيء نفسه لتذوق نص سيأتي في المستقبل . فأحياناً يسمع الصدى من مـاض منسي وأحياناً من حاضر مغمور لم يعرفه أحد بعد . فقد وجد نقاد في عشرينات هذا القرن شعروا بان عصر بليك وكير كغارد في متناول يدهم ، ثم تلاهم بعـد عشر سنوات من شعروا بأن الحقيقة الشاملة متضمنة في كابوس كافكا . وهـذا لا يعنى انهم اختاروا الجانب الرابح وانما يعني انهم علموا بوجود سباق .

ثانياً – يستطيع النقـد أن يعيد اعتبار الأدباء المنبوذين فعصر العلاقات الآلية السريعة هذا يخفي حدوداً سياسية وايديولوجية عمياء . ويستطيـع النـاقد أن يكون وسيطاً بين هذه الايديولوجيات وقيما عليها . بل ان جزءاً من عمله ألا يسمح للنسيان ان يعفي على آثار كاتب أخمد الحكم صوته او احرق كتبه . فمن واجب الناقد أن يجمع رماد هذه الكتب ويمنع تناثرها في الهواء .

وحتى لو قصر الناقد عمله على تمتين الروابط بين الحـــاضر والماضي فانه مضطر الى إبقاء الصلات قائمة بين اللغات حتى يكون النقد عاملاً على توسيـع مجال حساسيتنا وتعقيدها باضافة عناصر جديدة اليها . فالنقد يؤكد على الدوام ان الأدب لا يحيا في عزلة مطلقة ، بل في صراع لغوي وقومي متعدد الجهات . ان النقـــد يزدهر بتشابك النماذج وتلاقح الأفكار ، وهو يعلم ان الموهبة العظيمة او الشكل الشعري ينتشران في العالم الخارجي بصور كثيرة ومعقـدة . وعلى الرغم من ان المعروف ان ليس من مساواة بين اللغـات ، وبالتالي تكون

الترجمة خيانة ، فان الترجمة حاجة ملحة للشعر خاصة ، كي يعيش حياته وينجز تأثيره . ان الناقد والمترجم كلاهما يكد لايصال الاكتشاف الجديد .

وهذا يعني من الناحية العملية ان الأدب يجب ان يعلم ويشرح بطريقة مقارنة . اما اذا حاولت مثلاً أن تدرس سبنسر دون أن تعرف شيئاً عن الملحمة الايطالية ، او أن تفسر الرواية الفيكتورية دون ان تكون على اطلاع تام ببلزاك وفلوبير وستاندال ، فهذا يعني انك تقرأ قراءة سطحية وتبرم احكاماً زائفة . ان الاقطاعية الأكاديمية هي التي تضع فواصل حادة بين دراسة الانكليزية واللغات الحديثة ، او ليست الانكليزية لغة حديثة خاضعة في مدها وجذرها في كل فترات تاريخها لضغط اللغات الاوروبية والتراث الاوربي في الخطابة والتعبير؟ غير ان المسألة الوحيدة اكثر حدة من النظام الأكاديمي . فالناقد الذي يعلن أن باستطاعة الانسان أن يحتمل على لغة واحدة ، وان التراث القومي من الشعر او الرواية كاف او متفوق، هو ناقد يغلق الأبواب حيث يجب أن تفتح ، ويضيق على نفسه حيث يجب أن يوسع عليها . ان الشوفينية قد دمرت عالم السياسة وليس لها مجال في الأدب . ان الناقد يفترق عن الكاتب في انه لا يجوز أن يقيم في حديقة بيته .

الناحية الثالثة من النقد هي أهم نواحيه وتعنى بالحكم على الأدب المعاصر . طبعاً هناك فرق واضح بين الأدب المعاصر والأدب الوقتي . اذ يمكن التعليق على الأدب الوقتي في المجلات . لكن من الجلي ان على الناقد مسؤوليات معينة تجاه الفن في عصره . فعليه أن يهتم به لا كانتاج يمثل تقدماً في التقنية او مهارة في الاسلوب ، بل كشيء يشارك في المحافظة على الأخلاق الثقافية او يستخف بها :

ما هو مقياس الانسان الذي يعرضه هذا الكتاب ؟ وانه لسؤال صعب ولايمكن طرحه دائماً بالباقة المطلوبة لكن عصرنا ليس عصراً عادياً وهو يعمل تحت ضغط لا انساني ، فكأنه ميزان وضعت في احـــدى كفتيه اهمية الفرد وفي الكفة الأخرى الفزع من امكانية دمار محقق . ان تجاهل الكفتين ترف يود الانسان لو يقدر عليه لكنه لا يستطيع .

وهذا ما يدعو الانسان الى التساؤل عما اذا كان تينسي ويليامز يستخدم موهبته لدعم السادية وامدادها . او ما اذا كانت اخلاقية سالينجر المفتعلة تناقش نظرة عابثة واهية الى الوجود الانساني . وهذا ايضاً ما يقود الى التساؤل عن التفاهة في مسرحياته وقصصه ، عدا روايته الأولى ، وهل تتضمن ذلك الغموض الدائم الثابت الذي تصحبه الحركة الهوائية للافكار اصلا ؟ وانني الح هنا على كلمة « التساؤل » اي ان الناقد يسأل دون سخرية ودون ان يقوم بأي نوع من انواع الرقابة . ان التساؤل لا يكون خصباً الا اذا ورد الى الموضوع بحرية تامة وكان الناقد يرغب من كل قلبه في ان يجد نتيجة تخالف رأيه . وعلى حين نجد الشرطي والرقيب يسألان عن الكاتب نجد الناقد يسأل عن الكتاب ..

إن ما هدفت اليه من كل ذلك وخلاله هو فكرة « المعرفة الانسانية » فلنا دور لا ينكر في هذه المحاورات مع الأموات الخالدين الذين ندعو لقراءتهم ان القراءة عند الناقد شكل من اشكال العمل يختلف عن هجس الهواجس أو اللامبالاة التي تنبعث عن السأم . اننا ــ نحن النقاد ــ نلتزم بالكتاب ونسمع صوته . نسمح له بالدخول الى أعماقنا دون ان نعفيه من المراقبة .

ان الشعر العظيم والرواية الكلاسيكية تضغطان علينا .. تقتحمان وعينا وتحتلان أمنع معاقل ضمائرنا . ان حوادث الآثار العظيمة تجري في مخيلتنا وشهواتنا ومطامحنا واحلامنا . ان الذين يحرقون الكتب يعلمون ما يفعلون . فالفنان طاقة لا يمكن السيطرة عليها . فما من عين غريبة ، منذ فان غوخ ، لمحت شجر الحور الا تخيلت فيها بداية حريق .

ومن لم تتغير حياته ومفـــاهيمها بعد أن قرأ في الالياذة لقاء بريام وآشيل ، او حين تلا وصف اليوشا كرامازوف وهو راكع تحت النجوم ؟ بل من يستطيع ان يقرأ هاملت دون أن يحدق في جدران غرفته ويستمع الى النقر على بابه ؟ ومن يقدر أن يقرأ بروست او آنا كارنينا دون ان يشعر بضعف او هياج عارض في مشاعره الجنسية . ان القراءة الجيدة مخاطرة عظمى تعرض ذاتيتنا للجراح وتقلل من سيطرتنا على أنفسنا .

من المعروف ان المراحل الاولى للصراع توحي للمريض بحـلم قوي يشعر معه وكأنه تحرر من جسده . وفجأة يسيطر عليه خوف مريع كأن وجوداً آخر يتغلغل في شخص المرء ولا مجال للهرب منه ، وبهذا الخوف يصبح العقل في حـــالة وعي شديد . وهذا ما يجب أن يحدث لنا حين نتناول اثراً عظيما في الادب او في الفلسفة او في الخيال او في الارادة . انه يتلكنا امتلاكا ويجعلنا نخاف من انفسنا بفعل تعاويذه . ومن قرأ كتاب كافكا « المسخ » ثم استطاع ان ينظر في المرآة دون ان يجفل فهو امي بالرغم من انه يستطيع أن يتهجى الحروف المطبوعة .

وبما أن القيم التقليدية فقدت ترابطها وتناثرت شظايا متباعدة ، وبما ان الكلام التوى ورخص ، وبما ان البلاغة الموروثة والاستعارات الخلاقة خضعت

للصنعة والنحلة ، فان فن قراءة آثار المعرفة الانسانية يجب أن يعاد النظر فيه ويبنى من جديد ، وهذه هي مهمة النقد الأدبي في العصر الحديث . فعلى عاتق النقد يقع عبء تعليم الناس أن يعودوا الى انسانيتهم حين يقرؤون الادب ، ويشعرون بالخوف والبهجة والأمل .

وهـذا العمل يأتي في المحل الثاني اذا قارناه بعملية الخلق والابداع . وسيظل في مكانه هذا الى الأبد . غير أن الابداع نفسه اذا ترك وحيداً دون نقد فسوف يسقط في غيابة الظلام .



هدية الى الثوار

قصة للسيدة ألفة الادلبي

كانت ميتة خرقاء تلك التي كتبت على الحداد الشاب عبد الستار الشاغوري !... ميتة ، قبل أنها جاءت مصادفة، حملتها اليه رصاصة طائشة لم تجد هدفاً لها خيراً من صدره العريض ، فاستقرت فيه ، وفي لحظة سكن عن الحركة قلب فتي قوي ، كان عامراً بالحب والحنان ، والايمان الصادق . وغدا الحداد المفتول الذي لم يتجاوز الثلاثين من عمره جثة هامدة ، منطرحة على الدرب يصبغ نجيعها ترابه !...

كان هذا المنظر قد أصبح مألوفاً لدى سكان دمشق ابان الثورة السورية ، يوم صار الموت بالرصاصات الطائشة أمراً شائعاً لايثير الاستغراب أو العجب ، فكثيراً ما كانت المعارك تنشب بين الفرنسيين والثوار في شوارع المدينة ، فيطيش الرصاص كيفما اتفق ، ويردي المارة قتلى . وكان واضحاً لدى جميع الناس ان هذه الرصاصات الطائشة قلما كانت تأتي من بنادق الثوار ، لأن رصاصهم كان عزيزاً وغالياً ، لايفرطون به الا في المواقف الحاسمة ، أي حين يواجهون الأعداء . بينما كان الفرنسيون يطلقون الرصاص أحياناً على سبيل المزاح ، أو الترفيه عن النفس ، ليتسلوا بمرأى الذعر على وجوه المارين في الشوارع .

عندما أصابت الطائشة عبد الستار الشاغوري كان على بعد خطوتين من بيته . وكان ذلك في شهر رمضان ، وقبيل مدفع الافطار . وكان الرجل صائماً يوسع الخطى ليصل بيته قبل أن يدركه الوقت . وكان يحمل بيده كيساً كبيراً فيه عشاء زوجه وولديه التوأمين الصغيرين .

كان عبدالستار يقول لزوجه ان أحلى لحظات حياته هي حين كان يضع يده على باب بيته . كان يتئد قبل ان يدخل ، ثم يرهف السمع كي يتلذذ بسماع صوت الصغيرين يصرخان : بابا .. بابا . ثم يصغي الى صوت نقرات خطواتها الصغيرة وهما يتسابقان نحو الباب، وعندما يبصرانه كانا يقفان امامه ساكنين ثم يفتحان فيهما ويلبثان لحظة ينتظران، كما تفعل أفراخ الطير تماماً ، ثم يضع في فم كل واحد قطعة حلوى فيطبقان فيهما عليها ويتواثبان حوله، ويتشبثان به حتى يحملها ويدور بهما في صحن الدار - هكذا عودهما - وكانت هذه اللعبة تتكرر كل يوم ، وفي كل مرة كان الأب يشعر أن السعادة تغمره من فرقه حتى قدميه . كان يسمي توأميه

بالفرخين ، وكان الرجل متفائلاً الى حد بعيد ، يعتقد ان في قدرته - هو الحداد الفقير - أن يجعل من فرخيه الصغيرين نسرين قويين يحلقان عالياً .

ولكن الرصاصة الطائشة عاجلته !... هدمت ذلك كله في طرفة عين !...

اقيم لعبدالستار الشاغوري مأتم حافل في دار جاره أبي سعيد الجباز . لأن دار الشهيد كانت صغيرة لاتتسع لأفواج المعزين ، فالرجل كان معروفاً في اكثر احياء دمشق بنخوته ومروءته ، وتفانيه في سبيل وطنه وامته .

بعد ان انصرف الناس من المأتم . وبقي أهل الحارة وحدهم قال ابو سعيد الجباز صاحب البيت :

- يا أسفي عليك ياجار الرضى !.. أكاد يا أخوان لا أصدق أن عبد الستار قد مات ... على الرغم من أنني رأيته بعيني يصاب بالرصاصة الملعونة ، ورفعته عن التراب بيدي هاتين ، من قال رصاصة صغيرة تقتل ذاك العملاق ؟.. ياحسرة عليه لقد انقصف عمره وهو في عز الشباب ، كان والله رجلا حقاً !.

قال الشيخ مسعود إمام الجامع :

- هذا يا ابني يومه الموعود ... أول البارحة كنت ماراً بسوق الحميدية . وكانت السوق مكتظة بالناس اكثر منها في أي وقت آخر . وفجأة راح الرصاص يتساقط علينا من كل صوب دون ان نعرف مصدره ، اصيبت امرأة ، وقتل طفل صغير ، وبعد لحظة سكن كل شيء . وكان ذلك قبيل مدفع الافطار ايضاً ، أي في نفس الوقت الذي قتل فيه عبد الستار ، كأنهم يختارون ذلك الوقت عن عمد ليشيعوا البلبلة بين الناس .

انبرى احد الحلاق قائلا :

- أتصدقون ياناس مهزلة الرصاصات الطائشة هذه ؟؟

انها والله مؤامرات مدبرة ، يريد الفرنسيون ان يبثوا فينا الذعر ،

أن يجعلونا نكفر بالثورة . وكلما ارادوا ان يتخلصوا من واحد منا ارسلوا اليه من يصطاده . ثم يقولون بكل بساطة :

مات برصاصة طائشة .. يالها من طريقة سهلة للتخلص ممن يخافونه ..

لماذا يا ترى لم تصب الطائشة الا عبد الستار ؟؟

لماذا لم تصبني انا ؟ او انت ؟ او اي واحد آخر من ابناء حارتنا؟..

لم يعد خافياً على احد ان اخا عبد الستار قد اصبح من زعماء الثورة المرموقين . وقلما يمضي يوم الا ويهاجم هو ورجاله احد المخافر الفرنسية . وعبد الستار نفسه ـ الله يرحمه ـ كان كلما عرف ان الفرنسيين سيشنون هجوماً على غوطة دمشق ، يغلق دكانه ويتسلل الى هنالك تحت جنح الليل لينضم الى اخيه . وكان كما تعلمون يملك بارودة ألمانية ممتازة ، وكانت يده لاتخطىء الهدف أبداً . لاشك ان احد الخونة قد وشى به .. منذ يومين رأيت جنديين من الجيش المختلط يتسكعان في حارتنا كأنهما يترصدان احداً ، لقد خامرني الشك في أمرهما ، واقسم بالله انني رأيتهما البارحة ايضاً قبل ان تصيب الطائشة عبد الستار . لابد انهما لطيا في منعطف ، فلما مر المسكين اصطاده احدهما ثم وليا هاربين .

قال الشيخ مسعود :

ـ على هذا المنوال سيصطادوننا واحداً اثر واحد كالعصافير تماماً ..

قال احمد الحلاق :

ـ طبعاً .. ما دمنا نحن لانعرف كيف نصطادهم ..

قال الشيخ مسعود متسائلاً بصوت خفيض ، ولهجة خائفة :

ـ نحن نصطادهم ؟؟ مستحيل يا ابني ، العين لا تقاوم المخرز ...

نشب أحمد الحلاق من مكانه ووقف قبالة الشيخ مسعود واضعاً يديه في خاصرتيه وقال متحدياً :

– سيدي الشيخ ! قل لي بالله : الى متى سنظل عيوناً تخوز ؟؟ جيلكم علمنا الخنوع، نحن أيضاً نستطيع ان نكون مخارز ... ماذا ينقصنا؟ هم رجال ، ونحن رجال ..

وينطلق رجل كان صامتاً طوال السهرة فيوجه كلامه الى احمد الحلاق قائلاً :

– يا هذا قبل ان تعظ وتتفلسف ، لم لا تذهب الى الثورة وهناك تستطيع ان تبرهن على شجاعتك ومروءتك اكثر من هنا .

أجاب احمد :

– أقسم لكم بالله اني ذهبت الى زعماء الثورة في الغوطة أكثر من اربع مرات . وفي كل مرة كانوا يقولون لي :

لا يوجد عندنا سلاح . روح دبر بارودة وبعدئذ تعال . والى الآن لم استطع ان اجمع خمس ذهبات ثمن بارودة !..

ويرين الصمت برهة ، كان الشيخ مسعود خلالها يمد يده الى جيبه فيخرج منها كيساً صغيراً ثم يفتحه بتؤدة ويفرغ ما فيه في كفه ثم يتقدم من احمد الحلاق ويقول له :

– هذه خمس ذهبات ، كنت ادخرتها ليوم جنازتي ، الاحياء خير من الأموات ، خذها يا بني واشتر بها بارودة ، واعفُ عن جيلنا الذي علمكم الخنوع كما تعتقد أنت .

قام أحمد وانكب على يد الشيخ يقبلها وجهاً وقفاً ثم يأخذ منه الليرات الخمس ويدسها في جيبه وكأنه قد ملك الدنيا .

قال ابو سعيد الخباز :

– هذه والله وطنية صادقة يا سيدنا الشيخ . من لم يستطع الجود بنفسه فليجد بماله .

ثم يلتفت الى احمد ويقول له :

– اسمع مني يا احمد ، اشتر ما اعطاك الشيخ باوودة المرحوم عبد الستار . انها والله باوودة ممتازة . لا شك ان زوجته الآن بحاجة ماسة الى المال ، وستبيعها لك فوراً .

يقول احمد :

والله فكرة عظيمة ... قم معي الآن ، المرأة جارتك وربما تطمئن اليك أكثر مني ..

ويقوم الرجلان الى بيت عبد الستار فيطرقان باب الأرملة الشابة ، واذا صوت مبحوح قد انهكه العويل والبكاء يرد عليهما ، ويقول ابو سعيد :

– افتحي يا أختي ، انا جاركم ابو سعيد ، أريد أن اتحدث اليك بكلمتين .

وتلتف المرأة بملاءتها وترخي حجابها وتدخل الرجلين ، فيقول ابو سعيد الخباز :

– هذا يا أختي احمد الحلاق ، لا شك انك تعرفينه ، هو ابن حارتنا ورجل طيب وابن حلال ويريد ان يشتري منك باوودة المرحوم .

وتقول المرأة على الفور :

– اعوذ بالله ، انا ما عندي باوودة للبيع ..

يقول لها ابو سعيد :

– لا تخافي يا اختي ، طمني بالك ، أنا أضمن لك الرجل ، لايمكن ان يشي بك احد . هذا ابن حارتنا ، وواحد منا ، أعطه الباوودة . انت الآن أم ايتام وبحاجة الى مال .

ترد المرأة عليه بلهجة قاطعة :

– والله يا ابا سعيد لومت من الجوع انا والاولاد لن ابيع باوودته معاذ الله أن أفعلها ..

ويتهدج صوتها فتصمت عن الكلام . وكان يبدو على المرأة انها تبذل جهداً جباراً كي تبدو جلدة صامدة أمام الرجلين .

يقول احد الحلاق :

– ارجوك ، اتوسل اليك انا بحاجة الى بارودة لالتحق بالثوار وادافع عن ارض الوطن ، انت يا اختي زوجة مجاهد ، وتقدرين الجهاد في سبيل الوطن .

تقول المرأة :

– اذا كنت ستلتحق بالثورة حقاً ، ولا تريد البارودة لتتاجر بها ، سأقدمها اليك مع العباءة هدية . انها عباءة جديدة لم يلبسها والله الاموتين .

كان المرحوم يقول لي : « امانة برقبتك اذا مت ابعثي بارودتي وعباءتي هدية مني الى الثوار » .

يقول أبو سعيد وهو يمسح دمعتين لم يستطع حبسهما :

– الله يرحمه ، الكريم كريم حياً كان أو ميتاً .

ثم يردف متلعثما :

– ولكن يا اختي انت في ظروف حرجة ،يجب ان تقبلي ثمن البارودة

– معاذ الله ان اخون الأمانة في هدية عبد الستار الى الثوار ..، ان الله لاينسى عباده يا ابا سعيد .

وتدخل الى غرفة ، تغيب فيها قليلاً ، ثم تخرج وهي تحمل بارودة وعباءة تقدمها الى احد الحلاق قائلة :

– ضع العباءة على كتفيك ، ثم اخف البارودة تحت ابطك كي لا تثير شبهة ، هكذا كان يفعل المرحوم .

ويختنق صوتها فتدخل غرفتها ،وتغلق بابها ،وتنفجر باكية .وينظر الرجلان واحدهما الى الآخر ،ثم يخرجان مطرقين صامتين ،لقد كان موقف المرأة اسمى من ان تعبر عنه الكلمة...

الوضوء

قصة طاهي الراصب

استيقظ محمد وهو يلهث . والحال سمع صوت المؤذن الجهير « الصلاة خير من النوم . الصلاة خير من النوم . » انه الصوت الذي سمعه وهو نائم . سمعه من قرب ضاغط ينفخ في أذنه حتى يكاد يثقبهـــا . لكن الكلمات كانت غير هذه . كلمات طاردته كظلمة مخيفـة . وتنفس بعمق ، مجيلا عينيه في ظلام الغرفـة الدامس . يستطيع الآن أن يتوضأ . وسرى عنه أن استحالة الوضوء كانت ضغثـــاً ، والاحساس الخانق بالقذارة والاتساخ كان كابوس نوم .

في عروقه تدفق برد ، فعرف أن موجة العرق الغزير قد انتهت . ولأنه أحس بثقل الظلام على صدره المضطرب رمى اللحاف بخفة وضغط على زر الكهرباء .

سطع النور في الغرفة . وشاهد محمد أشياء العالم المادي أمامه فتراخت شدة روعه وأحس بالامن . لم يكن الكابوس محض رؤى فقد نفر بسببه عرق غزير انهكه على أنه اطمأن الى وجود الماء والحمام والصابون ، وعقد العزم على الاستحمام . هذا الكابوس المزمن ! هذا العرق السياح وهـذا الشعر المثخن بالرائحة والسواد ! كيف يرهقه احساس ثقيل بالقذارة يذعر نومه ؟ وتحسس باصابعه ذراعه المشعور ، مراقباً تزايد النفور في داخله من طراوة لزجة علقت بالشعر والجلد .

الآن سوف يغتسل . سيفرك جلده بالماء والصابون حتى تتقشر هـذه الطبقة المرعبة من الوسخ . ستتجلى عنه ، وتهوي مع الماء كوبجار تغور بها في أعماق الارض . وسيعود الى جلده بياضه القديم فنفر منه . « وطلبته نفسه ، طلبته فما وجدته » طلبته بالحاح وعصبية . وضاقت به حياته عندما زاولها وهو متسخ . طاردته في النهار بتذكيرها الحاد ، وفي الليل بكوابيسها الثقيلة .

وقفز من السرير خفيفاً مسرعاً . لم يضع قدميه في ممشاة . هرع الى الحمام خافياً . وضع يده على لولب الصنبور . قبل أن يديره نظر الى أنبوب الماء الفضي ، ثم الى فوهة السحاح المتخلية . وسرقته غبطة طفلانية ، فمسح ذراعه على خصره ، مشمراً كم مناته .

عندما أدار اللولب لم ينزل الماء . ولعن بنرفزة خفيفة السحاح البطيء . ازدادت نرفزته بسبب الهدوء الكريه . وتذكر كيف أثار أعصابه ـ مذ تفتح

وعيه – كل سلوك هادىء . لكن السحاح لم ينتبه . وبقي محمد يرقبه حتى انتقلت النرفزة الى يده . واذ ذاك أدار اللولب حتى اصطدم بغمده .

لم ينزل الماء . وأيقن محمد أن عطلاً أبله قد اصاب السحاح . استدار الى المغسلة بسخط . وبضربة من سبابته برم لولب الصنبور حتى منتهى تحركه . خيط من الماء رفيع سريع نزل وسقط في قعر الحوض . مد محمد يديه بارتياح ، وجمع فيهما حفنة من الماء . لم تمتلىء يداه ، اذ أخذ الخيط ينحل حتى تلاشى . وراقب هو فوهة الصنبور تنقط بضعة قطرات ثم تفرغ . وشهق الهواء في الانبوب شهقة طويلة ، ثم صمت كل شيء . صمت الانبوب والممر الضيق ، والغرف المظلمة . مرة اخرى أحس محمد بالهدوء . وعاد اليه ضيقه على نحو أقوى ، كان مختلطاً بالدهشة وبرغبة أضرى في الوضوء . أسرع ففتح باب البيت وارتقى الدرج الى السطح . تقدم من خزان الماء بخطاه السريعة الثابتة . وما أن وصل حتى نتع الغطاء عنه ونظر .

احتلت الدهشة الآن ساحة شعوره ، جلها . لم يعد يشعر بالغضب او النرفزة . دهشة وحسب ! دهشة صامتة كسول . كيف يمكن للخزان أن يفرغ من الماء ! ووقف وسط امواج الريح المتدفقة بعنف عبر الفضاء ، اتعبه شعور بالمرارة . لسعته إبر البرد واقشعر جلده . كل شيء هادىء الا الريح . النجوم البعيدة هادئة . والمدينة هادئة وهو في يم دهشته مكتشف بالهدوء . نظر الى قدميه وقد أحس بالبرد . تذكر سطح البيت القذر ، وبحركة لا ارادية رجفت ساقاه . مزيد من القذارة ولا ماء .

من موقفه ، رأى على الرصيف عدداً من الناس وعاوده الخنق اذ عرف أنهم توضأوا وهم الآن منطلقون نحو الجامع ! من أين جاءهم الماء !؟

يجب عليه أن يغسل بدنه فيغسل روحه . وعبر به ذعر سريع من أن تقوم الصلاة وتفوته ، أن يمر يوم آخر بلا وضوء ، فيهوي عليه ذلك الكابوس المصر الثقيل معدماً في نفسه طعم الحياة وريعان الكرامة . وقفز به خياله على غير انتظار الى الشاوع المعبور ، فانطلق ينزل الدرج . تلك الحنفيات القديمة التي ينهل منها العابرون وجميع الظماء ، يغتسلون ، هل يمكن أن تنضب ؟ ووصل الى الرصيف فلذعت قدميه برودته وضربه هواؤه . عندئذ هجم بكل قوته نحو الحنفية . على الرصيف الخالي الا من الريح العاصفة . شيئان فقط هجما عبر الهدوء المنتشر : هو والريح ، حافيين ، مذعورين ، وسخين . لم يوقفه مارآه قبيل وصوله من جفاف محزن مخيّب تمطى على وجه الحنفية كجفاف الريح . تابع عدوه كأن الريح تطارده ، أو أنه يطاردها . وحنفية اثر حنفية اجتاز في عدوه المذعور اليقظ ، مؤمناً اثر مؤمن. الحنفيات جميعها ناضبات، والمؤمنون لصق الجدران نحو مساجدهم. لاشك أنهم توضأوا ، ومن لم يتوضأ فقد تيمم . حصلوا على الماء وتوضأوا . غسلوا أجسادهم التي ربما لم يحسوا مرة بأي وسخ عليها . تنفسوا بارتياح . حمدوا الله . اطمأنوا على نظافتهم . وقصدوا المساجد . واما هو فلاهث . الحنفية الاخيرة تسخر منه بيكمها الصحراوي . وشد بقبضته على مكبس الماء الابيض . اتكأ عليه . تأمل الحنفية بلا توقع . واسترخت ساقاه . الهدوء مرة اخرى . عند الحنفية سكون كالتمثال . وبدأ العرق ينفر من مسام جلده ، ويحبحب على جبينه . ها قد زاده الجهد وسخاً ، كما زاده من قبل . كيف سيتوضأ الآن ؟ ونفحت منه رائحة العرق كرائحة طعام متعفن . وأحس بثقل مرهق .

هذه الريح العاصفة، لم لا تجلب غيماً؟ لم لا تتكاثف الغيوم وتجلب غيثاً؟

لم لاتحتجب هذه النجوم الخارقة ؟ كيف يبقى المتسخون بلا وضوء ، وهم العارفون بوسخهم ، يحسونه في اليقظة عرقاً نافراً وفي النوم كوابيس قاتلات .

زلقت يد محمد وتهدلت . يعرف ان التيمم ممكن ، وسيقبل به الله . بوسع هذه الجدران المقببة في السوق المؤبد ان تحل المشكلة . حقاً . ان الوقت لم يفت بعد ، فهو في نهاية السوق تقريباً . الى يساره المكتبة الظاهرية وامامه الجامع الاموي الكبير . جدران البنائين العتيقين عالية ، وحجارتهما صلبة ضخمة لاتفنيها الريح ولا الأمطار . ومد يده الى الجدار فلم يطله . ابتسم متهكماً ، ومدها مرة اخرى وضحك من قصره المفاجىء ! ليس قصيراً ، ولم يكن من قبل . لابد ان شيطاناً يزيد المسافة . تنحى عن الحنفية نهائياً . ومد يديه ، فلم تصلا . تقدم الى جدران الجامع غير منتبه بعد الى جفاء الجدار . شيء من غبار الأرض يكفي للتيمم . وشمر عن ساعديه . مد راحتيه الى جدار الجامع السميك . وروعه أن الجدار غار في الأرض . انشقت الأرض بمقدار حجمه ، وارتمى ضمنها ، وعاد التراب الى ما كان عليه . ونظر محمد أمامه فوجد أقسام الجامع الداخلية صامتة عارية . خيل إليه أن تلك الأقسام الداخلية أحشاء في جوف واسع انكشفت بلا ستر . كانت صامتة محايدة كأنها شاهد قديم . ولكن لابأس مادامت تحمل شيئاً من غبار التراب فسوف تصلح للتيمم . وأسرع يلج الجامع .

غارت الجدران واحداً واحداً . كلما استوصل جـــداراً سقط في قرارة الأرض . سقط الجدار المزين بالفسيفساء . سقط المحراب . سقط المصلى . سقطت الثريات الثمينة المضيئة . شيئان فقط بقيا : المصلون المغرقون في صلاتهم ، والسقف المهيمن فوق الرؤوس كسماء حجرية . وركض الى جدار ، انتصب وحيداً في الاقسام الغائرة . ركض اليه بأقصى قوته . في ذهنه تصميم عصي على أن يصله قبل

ان يغور . سوف ينطرح عليه . واذ شاهده يهوي انقذف نحوه بعزم أقصى . مد ذراعيه اليه وفي اللحظة التالية لامست وسطى اصابعه حجراً . ثم غار الجدار . وعبر محمد فوقه ، وقد استوت الارض من جديد ، كأن لم يكن منذ وهلة جدار . استمر يعدو ميمماً وجهة المكتبة الظاهرية . رآها تجثم أمامه كأرض موعودة . ركض بسرعة حتى لم يعد يحس بالأرض . لم تتحرك قدماه العاريتان ، وانمـــا طارتا . ولسعتهما الريح ، كما لسعت جسمه كله . وزاد إحساسه بقساوتها عرق غزير فاض من مسام جسمه فطرد منه الحرارة . قدماه اكثر من غيرهما صلبتهما الريح . وزادهما انسلاخاً عن الارض ذلك الغوران الساحق الذي أصاب جدران المكتبة . جداراً بعد جدار ، انخسفت في احشاء الارض منزاحة عن جميع كتبها . حتى البيوت المجاورة مادت بهـا الارض وابتلعتها . كل شيء غيبته الارض ، الا هو ومجموعة الكتب .

وألفى محمد نفسه معلقاً في الفضاء يعدو وتعدو معه الكتب . مجلدات صفر

حملها الأئمة والشارحون تراثهم وحملتها الايام غباراً مزمناً . لماذا هي مذعورة ؟ أهي الأخرى تنشد الوضوء ؟ أي جدار تقصد وأي تراب ؟ وداهمته فكرة رائعة . تعجب من نفسه كيف نسي ما على الكتب من غالي الغبـــار ، وهو كمية تكفيه للوضوء ، للتيمم . وكطائر جارح غـــير اتجاهه وانقض عليها . بوسعه ان يصلها سريعاً . فقد أصبح ينطلق كسهم النابل . انحط عليها مشهرا يديه امامه ، جامحاً ، ضارباً ، عنيداً .

عندما غارت الكتب في الأرض اصطدم رأس محمد ويداه بالتراب الاصم . وأحس برجة متينة شديدة . من يديه ورأسه تفجر دم أحمر غزير ، وانسفح على

جسده القذر . ركع ونظر الى نفسه : جميع عروقه يشخب دما . وعجب من غياب الذعر والقرفزة . بل انه تأمل دمه بشبق وابتهال . وبلا توان نزع ثيابه وقذف بها بعيدا . رفع يديه الى وجهه فغسله بدمها ، والى عنقه وصدره وظهره وساقيه وساعديه . وشاهد مع الانبثاقات الاولى لأشعة الشمس كيف ابيض جسمه وصفا، وكيف انفك شعره من التصاقه المزمن بالجلد وبدأ يتعابث كزرع آذار الوليد .

بارتياح عميق تمتم محمد لنفسه : آه ما أطيب هذا الوضوء !!



ابن السبيل

شعر زكي قنصل

بوينس ايرس

بصرتُ به في مهبّ الرياح　　تلاحقـــه غيمـةٌ ماطرَهْ
على وجنتيه ذبول الخريف　　وفي جفنه دمعـــة حائرَهْ
يمدّ الى الناس كفّ السؤال　　وتزجره عفـّــة ثائرَهْ
يتيمٌ شريدٌ غريب الديار　　تملّكه اليأس في العاشرَهْ
اذا همّ بالنطق سدّتْ عليه　　مذاهبَـــه غصّةٌ قاهره
يغض الجفون حياءً　　ويمشي عيـاء
ويذكر يافا وعهد الطفولهْ　　فتهتاج فيه جراح البطولهْ
ويخنق في مقلتيه البكاءَ
وتعصف احقاده الثائره

قوأت عليه السلام فلاحتْ   على شفتيه بقـايا ابتسامَهْ
ولكنها انطفأت فجـــأةً   كما احتجب البدر خلف غمامَهْ
وأى العطف في مقلتيّ فثارتْ   باعماقــه كبرياء الكرامَهْ
وردّ نقودي بعزّةِ نفسٍ   فكدتُ اعضّ يديّ ندامَهْ
واحسستُ اني ـ امام غنيّ ـ   يتيمٌ جـــديرٌ بفلس الشهامه
واعوض غضبانَ عني   فـــادركتُ اني
نكأتُ بعطفي دفينَ جراحِهْ   ودستُ بلطفي مهيض جناحِهْ

فطأطأت رأسي واسبلت جفني
وقلت لنفسي اقنعي بالسلامَهْ

وفي الليل عاد خيـــال اليتيم   يوشي منامي بشتى الصورْ
فطوراً يلوح بزيِّ المـــلوك   وآناً يلوح بزيِّ النوَرْ
وما زال حتى اشرأبَّ اميراً   يقود السرايا لساح الظفرْ
ويهدر كالليث بين السيوف   ويمرق كالسهم فوق الخطر
ولما استكان عجاج القتـال   ثنى مهره واختفى في القمرْ
وايقظني من رقادي   صهيل جوادِ
فقمت اجوب زوايا البـــلدْ   وارسل طرفي وراء الجلدْ
واجري مع الريح في كل وادِ
فلم ألــقَ لابن السبيل اثرْ

حياة جديدة

شعر احمد الجندي

أعدت لي الحياة وكان ظني   بأني قد مللت من الحيـــاة
وأيقظت الشباب فثار حتى   وهى تعباء فعاد الى السبات
وكيف تفيق أحلام تهاوت   على جسد يظن من الوفات
اردت لي الصبـــا لكن قلبي   يحس الموت من قبـل المات
وشيت بعينك السوداء خموي   وخمر الكون في عيني فتاة
فدار السكر في رأسي وهبت   غوافي همـــتي فعرفت ذاتي
واسرع خافقي لـيراك حتى   يرى ما في الهوى نُعميات
وأقبل حاضري ظمآن يروي   خواطره ويهمس بالشـكاة
اليك حبيبتي حبـاً جديـــداً   تعـثر في السنين الماضيات
فانت الكون يهتف بي جميلا   وانت العمر ميمون الهبـات

وبين يديك آمـال حسان ترف زهورها بالأمنيـات

* * *

ذهبت ولم تزل نعماك عندي اعود لها اذا ذهبت أناتي

وعشت لديك في عمر جديـد طليق من إسار الذكريات

فلما غبت غاب هدوء نفسي وامسى حاضري رهن الفوات

تكاد تذوب أيامي اشتياقاً لرؤية وجهك الحلو السمات

فليت الدهر يجمعنا وشيكا فنقضي بعض افراح الحياة

سيذكرنا الزمان اذا غدونا حديثاً من احاديث الرواة

وقصة حبنا نغم جديـد ولحن من اناشيد الحداة



تحت السماء البيضاء

شعر محمد عفيفي مطر

— القاهرة

خطى عزريل تقتربُ
تفحُّ بها السنابلُ والفروعُ الخضرُ والقصبُ
يسيل بها احورارُ الماء
وتضحك من بكائياتنا الخرساءُ
وفي قيثارة الأعراس تنتحبُ ..

خطى عزريل تقتربُ
وترقص في القناديل ،
تغمغم في المواويل
تطير تفجعاً ، يخضرُّ في إيقاعها الطرب
وترضعها الجذورُ وفي ثمار العالم الأرضيِّ تنسكبُ
فتزفرها المداخن والمزاميرُ

وعزرائيل شيخٌ ضاحك العينين مسحور
تبسّم في قناديل الشوارع وارتمى
من الأرض إسفلتاً وأسواراً
وشمساً في سقوف الريف
وزيتاً في تروس النارْ
وأجساداً مُضَمّخةً بما في الطمث من أسرار..

خطى عزريل تقتربُ
أراه الآن يغسل خُفّهُ الذهبيَّ في السحبِ
ويغمز لي بعينيه المغامرتين في الحقبِ
ويغويني بما في الليل من اقمار
وما في صيفه المقبل من ثمر ومن أطيار
فأهرب من حلاوة صوته المعتم
فيرقص ضاحكا في كل بوّابة ،
يلوح لي بما في جيبه السحريّ من سعف وزيتون وأعناب ،
يطاردني ، يقول : عروسك السمراء في أرضي
متوّجةً على الغابات
وحفل زفافك الموعود محتبس بأبوابي
وطفلك سوف يولد عبر أعتابي .. »
فأهرب في حرور الصهد منقسماً على نفسي
تغلغلُ في دمي السرجُ الشتائيّة

وقلبي بالتشهّي والنبيذ المرّ يشتعلُ ..

أتيتك جائعاً تحت الكروم وظامئاً في موسم الامطارْ
تخوّفت الجسورَ وفزّعتني ظلمة الآبار
وخفت خيانة الاشياء والاثار
وقد ضاقت ـ بما رحُبَتْ ـ عليَّ الأرض ياأمي
فجئتك جائعاً لروائح الثوبِ
وظمآناً لما أبقيت في ثديك من لبنٍ ..

خذيني الآن في بوابة الفيضان
لأمرق عبر حلمة ثديك الرحمن
فأدخل فيه مغتسلا من الارض
ومرتحلا من الخرَسِ الرهيب ومحفل الصخب ـ
إلى الصوت المقدس من نوافير الحليب وأغنيات
العالم المنسيّ في القلبِ

خذيني الآن في بوابة الفيضانْ
لأدخل في الربيع الابيض المغروس بين العرْق والعرْقِ
فأرقص في ابيضاض الريح والبرقِ
لأنسى ماتحجّرَ من لغات الأرض في رئتي
سأمشي في الحقول البيض املأ من جداولها وغرْبَتها
المقدس ليل جمجمتي
وأركض في قرار النبع أقطف زهرة اللبنِ
فيسكرني عصير الشمس وهي تطير تحت سمائها البيضاءْ ..

فلسطين ويهوذا الثاني

شعر راضي صدوق

– طولكرم

أنام على شفير الجرح ، مجدولاً ، بلا كفنِ . .
وفي عينيَّ تختنقُ أغنيــاتُ الشوقِ والشجنِ
أسائلُ في متاهِ الأرضِ : أين غدوتَ يا وطني ؟
وتصفعني الليال السودُ . . حتى الليل أنكرني !
أُفيء اليك ، يا وطني ، فهل ما زلت تذكرني ؟!

أعيشُ مضيّع العينين ، مطوياً بلا غــارِ . .
وأحملُ غربتي الرقطاءَ من دار . . الى دارِ . .
إغمّسُ لحني المشبوبَ من جرحي ومن عــاري
وفي جنبيّ تعصف أغنيــات الدمْ والثــارِ
تضيءُ الفجر للدنيــا . . وتتركني على النارِ !

حملتـــك في دمي لهباً . . وفي عيني أحزانا . .
ألوّن منك أيامي . . أحيـــلُ الصخر بستانا
وأطفىء لهفـــة الاشواق ، ثم تزيد نيرانا
فأنت لظى على كبدي ، تصب النـــار ألوانا
تظلُ بخاطري جرحـــاً ، سخيّ النزف ريانا

يُقالُ غداً تُطلُ الشمسُ في آفاقنا العمياءْ
وتشرق في مرابعنا ، وتغسلُ عتمة الظلماءْ
وتفرش في مجالي الأرض ، درب العودة الشماء
يقال غدا .. وأين غدٌ ؟ وأين الشمس والاضواء ؟
لقد عشِيَتْ محاجرُنا ، وأعمتْ نورَها الانواء

تكلم يا ضمير الارض ، هـــل من عالم حان ؟!
انذبح شعبنا حمـــلا ، فداء المحروم العـــاني ؟
وتنفض كفـــك الرقطاء من آثام أوطـــاني ؟
وتحمل غصنَ زيتون ، وأنت القاتل الجـــاني ؟
أتُنكرُ ؟! كيف تنكر يايهوذا العالم الثـــاني ؟

غدا يا روعة البركان ، سوف نطـــل بركانا . .
نخضُ العـــالم الملعونَ ، تشعله شظـــايانا
ونوقظ يا ضمير الارض ، شعبـــا كان جوعانا
وسوف يطـــلُ : تاريخاً ، واقداراً ، ونيرانا
ويُبدع للورى ، فجراً نقيّ الوهـــج انسانا

السفر .. والوصية

شعر اسماعيل عامود

- ١ -



رحلتُ ياشوارعَ المدينه
أغورُ في بحارْ ..
لعلّ نجمة تشعُّ في مرافىءِ المدارْ ..
لعلّ سندبادْ
يعودُ بالسفينه
فرغبتي تشدُّني لعالم القفارْ ..
أجوزُها .. وأغلق النهارْ ..
لعلني أصعّدُ السأمْ ،
لأن في جفونه يخبّىءُ الألم . !

. . وذا أبي يموتُ . .
يسير في تلكوءِ الدقائق الرهينهْ
يداهُ في مساكبِ الترابْ
وأميَ الحزينهْ ،
تعانق الفراغ في مشاعرٍ دفينهْ !
غشومةٌ هي السنون يا أسيرةَ الغيابْ

. . .

تمرُّ في شوارع المدينهْ
صبيّة ، تفجّرُ السكوتْ
فزوجها يموتْ !
وعندما توافدتْ مواكبُ الرفاقْ
تقودُهُ ، وتنثرُ البخورَ في الوجاقْ ؛
— وكان في فراشهِ يصارعُ المرضْ
يَبثّني . . يقول لي :
تشبثّوا بشمسكم ،
بنعمة الهواءِ ،
بالجذورْ
بكلّ ماتحفره السطورُ في الحجر ،
وإن مررتمْ ، مرّةً بغابة الليمون في «صفَدْ»
تذكروا بأنني نسيجها ،
بأنني ترابها ونسغها . .

بأنني جنيتها من ألف ألفِ عامْ ..
وان تعالتْ بالوكور صيحة الجرادِ والهوامْ ،
تكاتفوا .. وأطلقوا الرصاصَ في منابتِ
الرمد ..!!

-٣-

.. وها أنا سأسرد الحكايه ..
وكيف أنَّ والدي يموتْ ؛
يداه في مجامر الترابِ ، كالوثاقْ . .
ـ حكاية المسير والرفاقْ ـ
وكيف أنَّ والدي يملّحُ الجراحْ
ـ كثيرةٌ جراحنا تذرها الرياحْ ـ
ورغمَ ذا ، يضيءُ في وجوهنا الأملْ .!
نشيدنا تجاوزَ المدار والبيوتْ .!
.. وهاهو الخريفُ ... واليباسُ في الشجرْ
ومادَرتْ حكايتي بقسوة الحجرْ .!؟

-٤-

أعودُ بامفاوز المدينهْ
غريبة ، قصائدي تسيل بالعذابْ ،
حفرتها بدقةِ السفينهْ
لعلها تذكر المدينه ،
بأنها كحوتها ، ستبلعُ المدار والقمرْ !!

مجموعات « المعرفة » المجلدة

يسر ادارة مجلة « المعرفة » أن تعلم قراءها واصدقاءها عن وجود كميات محدودة من مجموعات مجلة « المعرفة » منذ صدورها مجلدة – كل أربعة اعداد في مجلد واحد – وادارة المعرفة مستعدة لارسالها لطالبها بثمن ٢٠ ليرة سورية لمجموعة السنة الواحدة المؤلفة من ثلاثة مجلدات يضاف اليه اجرة البريد للخارج ، حسب رغبة صاحب الطلب .

يرجى أن يكتب الى محاسبة مجلة « المعرفة » (وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومي – دمشق) مع ارفاق الطلب بالثمن المذكور . والمحاسبة مستعدة لتقديم المعلومات اللازمة بشأن التحويل من الخارج والارسال بالبريد العادي او الجوي وفق الطلب .

الكتاب والموضوعات

دولاكروا في أرض العرب

المغرب العربي حوّل دولاكروا والفن الغربي نحو فن جديد

للدكتور عفيف بهنسي



Eugène Delacroix

نشأة دولاكروا

ولد اوجين دولاكروا Delacroix عام ١٧٩٨ من اسرة نبيلة ، وكان ابوه شارل دولاكروا عضوا في المؤتمر الوطني ثم اصبح وزيرا للعلاقات الخارجية وسفيرا لبلاده في هولندا ثم محافظا . وكانت والدته المانيـــة الاصل شديدة الحدب على ابنها الذي تيتم في سن مبكرة ولذلك فقد كانت وفاتها عام ١٨١١ اكبر صدمة لابن الثالثة عشرة ثم دفعته اخته الى مرسم (جيران Gerain) عندما لمست بوادر نبوغه الفني.واستغرق دولاكروا في فنه كما تعلق بالادب والموسيقى اذ ترك نتاجا ادبيا رائعا ، حتى قيل ان بعض قطعه الادبية هي بمستوى اعمال مونتين Montaine وباسكال pascal . واشهر اعماله الادبية منشورة في مجلدات ثلاثة تتضمن مذكراته وآراءه ببعض الفنانين ، كذلك كان دولاكروا عازفا ماهرا على الكمان وكان شغوفا بالاستماع الى الموسيقى.

ومن اولى اعماله الفنية التي لفتت اليه الانتباه ، لوحة (دانتي وفرجيل في الجحيم) التي عرضت في معرض عام ١٨٢٢ ، فانقسم النقاد في حينها بين معجب وساخط ، وكان الساخطون هم من جماعة المدرسة الكلاسية المحدثة . ومع ذلك فقد بيعت هذه اللوحة بالف فرنك مما دعم مركز دولاكروا المادي وفسح امامه مجال الكفاية في حياته .

ومن اشهر اعماله التي ثبتت شهرته لوحة (الحرية تقود الشعب) التي الفها عقب ثورة لوي فيليب عام ١٨٣٠ ، وقد استوحى موضوعها من قصيدة الشاعر الشعبي باربيه . وتمثل اللوحة امرأة رشيقة ذات ثديين عامرين ووجه جميل قريب من وجوه الاغريق تحمل بيمينها علم الثورة وبيسارها بندقية وهي

تمثل الشعب الثائر وحولها الثائرون والجرحى والقتلى تستنهض هممهم للحصول على الحرية .

ولقد اندفع دولا كروا وراء الادب فاطلع على اكثر الانتاج وتأثر بوالتر سكوت وبيرون وشكسبير واستوحى منهم الكثير من اعماله الفنية ، كما استوحى بعض اعماله من احداث التاريخ المعاصر ، فصور (مذبحة ساقز) فكانت اعلانا عن مدرسة فنية جديدة تترجم عن النزعات الجامحة المكبوتة التي **كانت تعتمر في نفوس معاصريه ، ولقد اطلق على هذه المدرسة اسم الرومانتية** Romentisme .

ويعتبر دولا كروا من اخصب الفنانين الذين انتجوا روائع اللوحات ، في موضوعات مختلفة بعضها مستوحى من الشعر واكثرها مستوحى من حياة العرب . لذلك فاننا سنخصص موضوعنا هذا لهذه الناحية .

الرحيل الى ارض الحلم

في الحادي عشر من شهر كانون الثاني عام ١٨٣٢ اقلع مركب اللؤلؤة من طولون مقلا اوجين دولا كروا Eugène Delacroix الى المغرب مصطحبا معه دوموورني Demornay السفير فوق العادة للملك لوي فيليب عند السلطان عبد الرحمن ملك المغرب .

ولقد عانى دولا كروا في هذه الزيارة تجربة انقلابية كان لها ابعد الاثر في حياته الفنية . وكما يذكر المؤرخون فان دولا كروا كان قد قرر اقامة هذه الرحلة منذ بداية كانون الاول من عام — ١٨٣١ — . فقد اعلم صديقه فيللو Villo في كتاب مؤرخ في الثامن من هـــذا الشهر قائلا : « من المرجح ان امضي الى المغرب في

الاسبوع المقبل ، لاتهزأ كثيراً . انني جاد في ذلك وعلى هذا فانني جد سعيد » .
لقد كان ينتظر من وراء زيارته هذه ان يكشف عن عالم مجهول كثيرا ما حلم به الرومانتيون . فالشرق هو عالم آخر يمكن ان يكشف بكثير من المفاجأة عن التقاليد العتيقة الخيالية . ولقد مضى دولاكروا الى الشرق لكي يعطي الرومانتية معناها الصحيح وحيويتها الكاملة ، واكثر من ذلك فقد استطاع دولاكروا أن يقضي على استحالة الجمع بين الرومانتية والكلاسية اذ وجـــد نفسه في بلادالشرق وجهاً لوجه امام وحدة هذين الاتجاهين .



دولاكروا ـ الفرسان العرب

ويتحدث مؤرخو دولا كروا عن ظروف سفره الى المغرب العربي ، وهم يرون أنه انما مضى الى المغرب بتكليف من مدير الاوبرا دوبونشيل Dponchel الذي اختار دولا كروا لكي يحل محل ايزابي Isabey .

ولقد رافق دولا كروا ـ كما ذكرنا ـ شارل دوموزني ، وهو وصيف سابق لشارل العاشر ، ثم كلف من قبل لوي فيليب بأعباء السفارة لدى السلطان مولاي عبد الرحمن ليقوم بدور هام في توطيد العلاقات بين المغرب وفرنسا .

كان الرحيل شاقا في بدايته ، اذ صادفتها الثلوج في ليون وفي آفينيون ، وكان البرد والمطر غزيراً في مرسيليا ، ثم وصلا الى طولون ، وخلال ثلاثة عشر يوما من السير في الطرقات الوعرة اكتشف دولا كروا الجوانب العربية البهية في مدينة مينورك وماجورك ومالقا وفي غرناطة . وهكذا اجتاز كل اسبانيا، الا ان الخوف من الكوليرا اجبره على المكوث في المحجر، فلم يستطع الاتصال بالاسبانيين الا عن بعد. ومع ذلك فلقد كان مأخوذاً بالمشاهد الرائعة والعمارات العربية، وفي رسائله الى بييره Pierret كتب في ٢٤ ك ١ : « ان مشاهد غريبا تتزاحم امامي ». ثم كتب في نفس اليوم : وأخيراً ها أنذا امام طنجة ، حيث استقبل المسافرون امين بياس وزير الشؤون الخارجية لدى حكومة السلطان . وقـد ترك لنا دولا كروا مشهدا بالالوان المائية عن هذا الاستقبال . ثم كتب الى بييره: «تستطيع ان تقدر يا عزيزي مسرتي عند رؤية هؤلاء الناس الذين جئت باجتماعهم ». وفي اليوم الثاني زار المدينة فقال: « انني شديد الدهشة من كل ما اراه . انني في هذه اللحظة انسان يحلم ويرى اشياء يخشى ان تضيع منه. . ملابس سوداء وصفراء وخضراء. . . جنود وموسيقيون عسكريون بألبسة غريبة جـداً » ويقول هويـغ : « ان الاحلام التي اعتاد عليها دولا كروا مستوحاة من الماضي البعيد . اصبحت هنا فجأة ،

حاضراً قريبا ، واضحت هذه الاحلام حقائق واقعية امام عينيه ،لقد كان يقذف بنفسه من الواقع الى الاحلام . اما الآن فان الاحلام . تتجسم امامه في الواقع».

الواقع والحقيقة الصارمة

على ان الواقع كان اقوى مؤثر على دولا كروا ، فلقد قدم اليه العالم الخارجي دائماً أوسع المفردات كما قدم اليه اشكالا عميقة التجاوب مع عالم الفنان الداخلي ، اصبحت فيما بعد الموضوع الاساسي في انتاجه ،وكان يقول :«انني انقب عن حقيقة الأشياء المؤلمة عندما التجىء الى عالم الابداع الفني » . وعندما كان دولا كروا يعيش وجهاً لوجه مع ذاته ومع الطبيعة ، مع العالم الداخلي ومع العالم الخارجي ،كان يعتقد أن الاول ينوء تحت ضغط الثاني ، ولذا كان يقول في ذلك : « ان الموضوع هنا يجر كل شيء اليه دون ان يترك شيئاً للفنان » وفي رسالة موجهة الى بيره من طنجة مؤرخة في ٢٩ شباط ١٨٣٢ كتب عبارة جد مبتكرة تعبر عن مدى طغيان العالم الخارجي عليه «روعة جمة ومدهشة تجري هنا بين الازقة » «ولكنها تغتالك بحقيقتها» . لقد كان دولا كروا ممثلا من تأثير العالم الخارجي في البلاد العربية ،الا ان هذا العالم لم يمنعه قط من ابراز حقيقته الخاصة في اعماله الفنية .

ولقد اكتشف دولا كروا بنفس الوقت أن المشاعر التي يحدثها العالم الخارجي يمكن ان تصبح مصدراً شعرياً « وذلك عندما لاتكون هذه المشاعر صدى للمألوف او نتيجة تسجيل عقيم » .

لقد قام دولا كروا بجولات في الضواحي ممتطياً جواده ،فوجد في حواسه قوى منسية منذ سنين طويلة « في وسط هذه الطبيعة الرائعة ،اعاني مشاعر شبيهة بتلك التي عانيتها في طفولتي ، لقد استفاقت شمس الجنوب الفرنسي في نفسي،تلك الشمس التي عشتها في طفولتي المبكرة » .

سيطرة الموضوع والعالم الخارجي

وفي الوقت الذي حملته الرومانتية الى عالم الخيال ، تبين دولا كروا خلال وجوده في طنجة ان العالم الخارجي كان يفرض عليه ان يكون حيادياً أحياناً لكي يقوم بمهام كثيفة مختلفة . فمن اجل انجاز لوحاته ، كان عليه ان يقوم دائماً بالبحث عن التفاصيل الدقيقة . وان يصور التزيينات الدقيقة . للالبسة الشعبية ، وللحلي العربية كالاقراط والعقود ، إلا انه عند اختيارها ، كان يتوخى ان تكون مثيرة ، وان توهم الناظر بأنها صحيحة ومقنعة .

في المغرب عاش دولا كروا هذا الجو ، ولقد أقام في مكناس عدة ايام وكان يسجل انطباعاته في رسائله المستمرة الى بيره « لقد اتضح لي ان الاشياء هنا في توتر مستمر ، فالجمال يكاد يعشي البصر في كل لحظة نعتقد فيها انه غير قابل للتحسس وهكذا فان الفن عند دولا كروا كان بقنات من الواقع العميق الذي قد يتجاوز الفنان نفسه .

لقد كان تأثير المغرب على دولا كروا قوياً ويمكن ان نقول بأنه تأكد فيه كفنان وانه تكشف فيه كمبدع . فعدا البهاء والطرافة التي نقلها عن الاشياء الشرقية والتي استثمرها في اكثر لوحاته ، فان ذلك الجو بكثافته الجمالية ، كان أساساً بديعاً جذاباً واليفاً . وكان يشعر دائماً انه مرتبط به بكل عواطفه واحاسيسه .

مبادىء جديدة للون سبقت مبادىء الانطباعيين

لقد اعتادت العين في الارض العربية على المشاهد والالوان والانوار ، ولم يكن باستطاعة انسان ألف الحياة هناك ان يكتشف روعتها كما تم لدولا كروا . بل ان دولا كروا قد اصيب بما يشبه الصدمة المفاجئة التي دفعته لممارسة تجربة التعبير عن النور واقتباس البقع اللونية مضحياً أحياناً بالشكل نفسه لكي يخلص الى تقسيمات

النور والقتام. ولكن النور في الجزائر كان قاسياً جداً على عيني دولا كروا المرهقتين.

ولئن استعرضنا مذكراته التي تولى نشرها فيما بعد اندره جوبان Jouban والتي تضمنت انطباعاته خلال هذه الرحلة في المغرب، لوجدنا من خلال ذلك جميع مبادىء الانطباعيين، فلم تكن الطبيعة على حد قوله الا سمفونية ألوان. وكان دولا كروا يقوم بتحليل ألوان الطبيعة في مذكراته، مما لم يسبقه في ذلك أحد.

وهكذا فان اللون لم يعد عند دولا كروا مجرد رداء يكتسبه الشكل او مجرد تعريف للحجم، بل أصبح مساحة لها مكانها ودورها في أرض اللوحة، واصبح للون ضياؤه الخاص وشعاعه الذي يشكل به الأشياء، وهكذا يكتب في مذكراته (في غرفة الباشا لون أزهر حي على جدار أبيض) ثم يقول «وفي السوق نرى خلف الطريق المظلم عرب يجلسون القرفصاء يشع منهم النور بقوة».

ولقد كان اللون الابيض كل الألوان الثارة لدولا كروا في المغرب. اما الظلام فلم يعد كما كان الأمر عند رامبرنت قاتماً فارغاً. بل حافلاً ببقع النور الساطع من الألوان المنثورة في الظلام كما نرى ذلك في لوحة «عرس اليهود».

وفي مكناس قضى دولا كروا عشرين يوماً منتظراً مقابلة السلطان الذي كان يسكن حسب تعبير دولا كروا «في قصر مغربي مزين بالخزف والفسيفساء» وهناك يتعرف دولا كروا على منابع المتع الفنية التي مازالت مصدراً للفن الحديث.

دولا كروا بين الغرب والشرق

لقد كان على دولا كروا ان يعاني ذلك التعارض الجذري بين مفهومي الفن في الغرب والشرق، فالغرب الذي أقام قواعد فنه على المفهوم الكلاسي الذي نشأ في الحوض المتوسط، بقي محصوراً في تطوره ضمن حدود التعديل

الطفيف في الشكل ، وضمن حدود التعمق في انسجام الألوان ولو بعيداً عن وضعها في الطبيعة .

اما في الفن الشرقي ، وخاصة الفن العربي الذي ظهر في الفنون البيزنطية والاسلامية ، فلقد كان على العكس ، يقوم على محاوبة الشكل والكشف عن الضياء لكي يثير تعبيرات خاصة لا يمكن للطبيعة المألوفة اثارتها .

وهكذا كان الفن العربي طريقاً للاتصال الروحي والعاطفي بين الفنان والجمهور ، على عكس الفن الغربي الذي كان موضوعاً عقلياً ، على الناظر اليه ان يحص ويفهم ويمنطق الظواهر الفنية .

وقد يبدو الفن الغربي في القرون الوسطى مشابهاً في اتجاهه الديني للفن الشرقي العربي ، ولكن يجب ان لا ننسى ان للاتصالات الغربية بالشرق العربي اثرها الكبير في هذا الاتجاه ، خاصة اذا تذكرنا الحج الى القدس والحروب الصليبية التي كانت جسراً نقل الكثير من المفاهيم الدينية العربية الأصيلة في الفن المسيحي الى مفهومه وتطبيقاته في الغرب المسيحي .

بين الرومانتية وعالم الحلم في الشرق العربي

ولعل هذا السبب هو نفسه الذي دعا دولاكروا لاقامة المدرسة الرومانتية القائمة على الاحساس والعاطفة أكثر مما تقوم على العقل والقانون كما كان الأمر في الفن الكلاسي . وبدا ذلك لديه في عدم التركيز على الحدود الفاصلة للاشكال ، وفي وضع ألوان متضادة توحي بالجو العاطفي وترتبط بالوسط الداخلي . وهكذا كان الخلاف بين دولاكروا والفن الكلاسي ، فبينما كان الفن الكلاسي يقوم على رد الفعل اصبح فن دولاكروا يقوم على الاتصال المباشر .

ولقد اكتشف هذا كله من المغرب ، لقد اكتشف الحياة قبل ان

يكتشف الصورة . اكتشف الحس الفني ونسي نهائيا العقل الجامد الذي كان يدعو اليه دافيد وزمرته في مدرسته (الكلاسية المحدثة) .

نهاية الكلاسية وبداية الوحي

لقد كانت الحياة في المغرب غارقة كليا في اللون وفي الضياء . ولم تعد اعمال غروس Gros او روبنس Rubens اوحتى جيريكول Gericault الا اشياء تافهة . لقد اقر دولا كروا بذلك منذ الاسبوع الاول من اقامته في طنجة وهو يقارن في رسالة الى بيره ، بين رسوم الخيول لديهم ورسوم الخيول العربية التي صورها هناك .

ولم يكن ذلك مقصوراً على الخيول والحيوانات المفترسة بل شمل الانسان ، لقد كان وجوده في المغرب ذا اهداف بعيدة جدا . لم تكن هذه الارض الجديدة الغامضة محل سياحة او فضول عارض ، لقد كانت هدف كشف كبير عن حضارة عريقة ، « عريقة وبعيدة جدا » .

وفي الخامس من آذار وافق السلطان نهائيا على مقابلته في مكناس ووصف دولا كروا استقباله الناس والحرس واطلاق النار للاحتفاء به في كل مذكراته ، كما نفذ ذلك في لوحات تحت عنوان « تمارين عسكرية للمراكش » عام ١٨٤٧ .

وصل دولا كروا مع السفير الى مكناس في ١٥ آذار تتقدمهم الموسيقى وراء الاعلام وتحيطهم طلقات البنادق من كل جانب . وبعد انتظار بضعة ايام في مقر الاقامة الذي حدد لهم ، تقدم الى مقابلة السلطان في الثاني والعشرين من آذار وفي مكان مكشوف السقف الى السماء . كان السلطان عبد الرحمن كما وصفه دولا كروا « يشبه لوي فيليب كثيرا الا انه اصغر سنا وذو لحية كثيفة » وقد استقبل السفير والفنان الكبير بحفاوة بالغة .

وفي الخامس من نيسان اخذ دولا كروا نفس الطريق عائداً الى طنجة ، وفيها ابتـــدأت رحلته في اسبانيا الاندلسية ، في قادس وفي اشبيلية حيث قال « كل شيء هنا يذكرني بالعرب الا الدين » . وفي الثامن والعشرين من الشهر نفسه عاد دولا كروا الى المغرب ثانية ثم سافر من طنجة في العاشر من حزيران الى وهران في الجزائر ثم الى مدينة الجزائر حيث اقام فيها من ١٨ الى ٢٥ حزيران . ثم عرج عائدا الى بلاده عن طريق طولون التي وصلها في الخامس من تموز . وكان عليه ان ينتظر فيها بعض الوقت محاولا التخفيف عنه برسم ثماني عشرة صورة مائية مثبتا فيها ذكرياته العربية ، وقد اهداها الى صديقه «مورناي» الذي كان له فضل تسهيل هذه الرحلة الهامة والتي كانت نتائجها حاسمة في حياته الفنية .

آثار المشاهد الفنية والعربية في رسائل دولا كروا وفي خياله

ان جميع اللوحات العربية التي رسمها دولا كروا فيما بعد ، كان قد شرح تفاصيلها وانطباعاته عنها في رسائله الى اصدقائه او في مذكراته اليومية التي نشرت فيما بعد . وكان يقول « ان الجمال غزير هنا ، في كل خطوة نشاهد لوحة جاهزة يمكن ان تكون ثروة ومجداً لعشرين جيلا من الفنانين » .

ولكن التصوير عن الطبيعة لم يكن امرا سهلا ، كتب دولا كروا الى بيره صديقه قائلا : « ان العرب هنا ينفرون من الاجنبي ، من ردائه ومن وجهه ، وهم يلتفون حوله بكثير من الشك ، حتى لا أكاد استطيع ان ارسم . وقد استطيع ان ارسم مطلا من السطوح ، ولكن النسوة اللواتي يقمن هناك غالباً من اكبر مانع لي من الصعود . ان غيرة المغاربة لاحد لها وقد لا يتورعون عن اطلاق النار علي » . « في الثامن من حزيران وفي القصر الكبير شدني القائد المغربي الذي كان يرافقني وطلب الي ان اركض حماية لي من النـــار الذي تطلقه الحالة ،

ولكني قبعت انظر الى هذا المشهد اسجله في خيالي اذ لم يكن بامكاني رسمه ابدا» .

وهكذا سجل دولا كروا في ذهنه معجماً من المشاهد الرائعة .

الانقلاب الكامل على الحضارة الكلاسية

في رسالة الى صديقه فيلو villot في شامبروزاي ، كتب له بعدعودته الى بلاده يقول : « لقد اصبحت باريس تضجرني الى اقصى حد ، لقد كان الناس والاشياء يبدون لي في المغرب بشكل خاص جدا » . وكما يقول هويغ : «لقد خرج دولا كروا عن حضارتنا ، عن التكلف والجدل غير المجدي . وجابه الحياة في حقيقتها وفي عريها . وكان عليه ان ينسى كل ما عرفه قبل ذلك . لقد تبين له أنه تخلص من ذلك التيه العبثي الذي اعتقد انه سيبقى اسيره » .

ولقد اكتشف دولا كروا منذ ان تعرف على معالم الحياة في العالم العربي ان الحضارة الكلاسية والفن الكلاسي لا يقدمان الغذاء الوحيد للحيــاة ، بل انه رأى على العكس ان هذا الغذاء الكامل هو في الشرق العربي . وكتب الى فيلو « **اذا انت ملكت بعض الوقت او بعض اليوم فتعال الى بلاد العرب، فانك سترى فيها كل طبيعي حومنا منــــه ، ستحس بصورة رائعة ونادرة بالشمس التي تعطي كل شيء ، حياة الى الاعماق** » .

ما هي رومانتية دولا كروا

من هنا نستطيع تحليل الرومانتية التي جاء بها دولا كروا ، فالشمس التي لاتترك مكاناً للظل لم تكن مألوفة في الاتجاهات الرومانتية التي عرفت حتى ذلك الحين ، والطبيعة لم تعد هنا الا مرتكزاً رمزياً للواقع، والحياة النافذة الى الاعماق لم تعد مجرد ألوان كثيفة بل هي تناغم وتناسق متوازن .

ويصرح دولا كروا في مذكراته « ان شعوب افريقيا الشمالية هي اقرب الناس الى الطبيعة ، ملابسهم ،واشكال احذيتهم .. كذلك فان الجمال يمتزج بكل ما يقومون به » . « وفيما نحن ، نحن الذين نقف على حافة مدنية متقدمة ،ولكنها قليلة الانتاج ، فاننا نمثل التفاهة بارديتنا واحذيتنا الشيقة وبقفازاتنا المضحكة اننا نثير الشفقة » .

لقد شكل فن دولا كروا تركيب Synthèse الاتجاهين الكلاسي والحديث ، فهو إذ فهم ان الفن يقف في منتصف الطريق من الواقع لكي يستطيع ان يعبر عن الاجواء الخاصة والانطباعات الرقيقة الرائعة المرافقة للموضوع ، فانه لم يتنكب لطريق الكلاسية المؤدي الى السمو والروعة . وكان هذا التركيب جاهزاً في ارض العرب ، فهو يقول لصديقه الفنان غودان الذي جاء لزيارة المغرب « انني ارثي للفنانين الذين ربطوا اعمالهم بخيالات لاتتصل بالسمو والبهاء الموجود في هذه الطبيعة العذراء » . «البهاء والجمال الى جانب السمو والرفعة في كل شيء : من الرداء اليومي الذي يرتديه العربي الى العادات والتقاليد الشائعة » . ان هذا مما لم تألفه بلادنا » . «ان الروعة الحية الباهرة تنسال هنا في الازقة » . وفي رسالته الى بيره في ٢٩ شباط يقول :

« تصور يا صديقي ما يمكن ان تراه عند غروب الشمس ،فعندما يتاح لك ان تمر في الطرقات ستري النعال المصفوفة والاشخاص المتسامرين ، وكأنك ترى كاتون وبروتوس . انني اؤكد لك انك لن تصدق ما سأعرضه عليك ،ذلك لأنك ستكون بعيداً جداً عن سمو هذه الطبائع ، انهم جميعاً بالاردية البيضاء وكأنهم اعضاء مجلس الشيوخ في روما او شخصيات الباناتينه في اثينا » .

والواقع ان دولا كروا وجد زاويته في الأرض العربية كل مزايا الفن القديم ، الاغريقي والروماني، ولذلك فاننا نراه يكتب الى صديقه اوغست جال الذي سبق ان زار المغرب ايضاً : « هنا الاشياء اشد بساطة وأعرق قدماً ، ليس من طابع تركي ، بل ان الاغريق والرومان على باب بيتي ، انني اضحك عاليًأمن موضوعات دافيد الاغريقية ، لقد عرفت الآن ان الرخام هو حقيقة ولا شك ، ولكن يجب قراءة هذه الحقيقة، اما المساكين المحدثين فانهم لم يروا الا الهيروغليف. انني ادعوهم جميعاً لزيارة هذه الأرض ليكشفوا عن الأصول . ان روما ليست في روما ، بل هنا » .

وهكذا فلقد قدم المغرب الى دولا كروا كل ما هو بحاجة اليه من ثقافة فنية مما اغناه عن أية مدرسة ، بل لقد ازال المغرب من ذهنه جميع النظريات العبثية ، وربطه بالحياة مباشرة ، وبذلك وثق دولا كروا من نفسه كفنان مبدع.

لقد تعلق دولا كروا بالشمس العربية بوله ، ولكنه لم ينس الليالي الرائعة « القلعة ، والليل ، والقمر الساطع على الماء الحزين ، ونقيق الضفادع ، والكنيسة المغربية القوطية » انها ظلمة رائعة .

الجو العربي ينقل الى باريس

وعندما عاد دولا كروا الى باريس ، لبث فيها زمنا لا يبارحها حتى عام ١٨٣٤ . وخلالها كان دولا كروا ينفذ بعض الموضوعات الضخمة التي استوحاها من زيارته الى المغرب . ولقد كشف معرض عام ١٨٣٤ عن روائع دولا كروا العربية . وكان من ابرز هذه الموضاعات ــ شارع في مكناس ــ نسوة جزائريات ــ التقاء الفرسان المغاربة .

وفي هذه اللوحات الثلاث نلاحظ التحول الجذري الذي بدا في أعمال دولاكروا ، ويمكننا حصر معالم فنه الجديد في ذلك الالتقاء بين الاطراف المتناقضة الكلاسية والعصرية الحركية والسكونية في نظام متوازن متناغم .

وسنعمد في هذا البحث السريع لدراسة احدى لوحات دولاكروا الشهيرة وهي لوحة (نسوة جزائريات) للكشف عن منطلقات الاتجاه العربي عند دولاكروا :

نسوة جزائريات

تعتبر لوحة (نسوة جزائريات) من ابرز اللوحات التي قدمها دولاكروا والتي كانت ثمرة رائعة من ثمرات زيارته الى البلاد العربية في المغرب والجزائر .

ودولاكروا الذي أغرته الطقوس والازياء والجو في زيارته الى الارض العربية ، كان لا بد له من شخوص « موديلات » وبما انه من المتعذر على الرجل الغريب ان يدخل الى حريم بيت مسلم فلقد لجأ دولاكروا الى النسوة غير المسلمات ، فقد سبق ان استعان في تصوير لوحة « زي جزائري » بفتاة تدعى ديتيتيا ، ثم قام احد اصدقائه برافقته لزيارة سيدة أخرى ، وكانت سيدة جميلة جداً ، ادهشت دولاكروا الذي سحر بروية عينيها ، وكان لديها بعض الاشياء الجميلة المحلية كمرآة مؤطرة بالذهب واقمشة رائعة طرزتها بيدها ، واثاث ملون وخزف زاه جميل . في هذا المكان وجد دولاكروا نفسه وجهاً لوجه امام احلامه البعيدة ، بيت عربي فيه امرأة تعنى بشؤون بيتها ، تقوم بتحضير الطعام تحب زوجها ، وتربي اطفالها . « انها المرأة كما افهمها » ليست امرأة مقذوفاً بها

الى الحياة الخارجية ، بل هي مشدودة الى قلب الحياة الداخلية الوادعة المستقرة الهانئة . وهكذا تكونت في ذهنه وخياله لوحة نسوة جزائريات .

ولم ينتظر دولا كروا طويلا فلقد قام حالا بتسجيل صورة سريعة بالالوان المائية لوضع اولي سجل فيه احساساته الاولى عن موضوع نسوة جزائريات. ولقد مثلت المرأة المضطجعة في اليسار مريم بنت السلطان ، كما مثلت هي ذاتها المرأة المتربعة في الوسط . اما زهرة بنت السلطان فقد مثلتها المرأة الجالسة الى اليمين. وقد استعان ايضا بفتاة اسمها باهية واخرى اسمها زهرة طوبوشي ثم خدوجة ، ومن المؤكد ان هذه الاسماء التي تركها دولا كروا على مذكراته ودراساته لم تكن اسماء اجنبية بل كانت عربية ، ولعلها لنسوة تركيات .

ولقد قام دولا كروا بتثبيت اوصاف الألوان الـتي يجب وضعها للاشياء المصورة كالحذاء ، والاقمشة ، والاغطية ، التي حمل منها الكثير الى كورنول Cournault .

واقد قام دولا كروا بتصوير نسوة اخريات ، يقمن في شارع القصير في الجزائر ، ولكن ماذا يستطيع دولا كروا ان يعمل بهذه الملاحظات الخاطفة . لقد شعر انها تكاد لاتفيده شيئاً .

وسجل قلقه هذا في مذكراته المؤرخة في ٢٩ شباط « انني لشديد الثقة بان المعلومات الهامة التي سأحملها من هنا لن تفيدني كثيراً ، فعندماسأصبح بعيداً عن هذه الارض فان ماسأحمله يصبح كالشجرة التي قلعت من أرضها الاصلية » .

واذا كان دولا كروا لم يقتصر على حمـل اوراقه الى موطنه ، بل حمّل روحه نسغا جديدا من الفن العربي ، فان هذه الشجرة – كما يقول رونيههويغ –

قد ازدهرت من جـــديد وقد تفرعت في هذه الروح المستشرقة التي امتلأت بحب الشرق .

وكانت تنعش ذاكرته من وقت لآخر صور الوصيفات التي كان قد رسمها بونغتون الانكليزي Bonington او اوغست الفرنسي Auguste عند زيارتها للبلاد العربية والى تركيا ، وكثيرا ما استفاد منها في اللوحات الشرقية الاولى مثل « الجارية المفضلة لسفير العجم » وهي رسم بالطباعة على الحجر انجزها عام ١٨٢٧ ، ونسخ عن المنمنمات الفارسية ولوحة تمثل خادما معمماً يحمل طبقا من المرطبات الى سيدة مضطجعة على اريكة . كما كانت هناك لوحة «المفضلة» ١٨٢١ و مجموعة صور النسوة « الدم المختلط » التي ابتدأ بتصويرها في نفس العام . وهناك اللوحة الموجودة في مونبلييه التي انجزها عام ١٨٢٣ واتبعها بلوحة (ايلين الوصيفة) التي صورها مرتين في عام ١٨٢٤ ، أي في نفس الوقت الذي صور فيه لوحة مذبحة ساقز ، ثم لوحات (اسبانيا المغربية) الثلاث التي انجزها عام ١٨٢٦ .

في ذلك الوقت كان دولا كروا يجري دراسات على تصوير الوصيفات وهن يلبسن الجوارب البيضاء او على رؤوسهن شعر مستعار تحضيرا لتصوير « ضحية ساردانابال الجميلة » .

والواقع ان تلك المرأة المنحنية التي نراها في لوحة (نساء جزائريات ، الى اليمين ، قد فصلت عن اصلها المتمثل بزهرة بنت السلطان وعادت لكي تذكرنا بالوجوه التي رسمها دولا كروا عام ١٨٢٤ في لوحة (مذبحة ساقز) ، وفي لوحة (اليونان) التي رسمها عام ١٨٢٧ وفي لوحة (الحربة على المتاريس) عام ١٨٣٠ . انها امرأة ذات عينين نصف مغمضتين ، وفم مغلق قليلا . اننا لنرى وجهها الاليف . وقد تمثل امرأة اخرى في لوحة نسوة جزائريات ثم لانراه بعد ذلك ابدا .

لقد كان موضوع « النسوة الجزائريات » الطريق الرحب الذي سمح له دولاكروا عدة مرات بولوج عالم جديد قريب . وهو عالم جهي حافـــل بالنور واللون « انه عالم كالحلم في جو حالم . هو مفهوم لايلبث ان يصبح موضوعاً في وسط ملون خاص به » . « هنا اللون الاصفر والذهبي والاحمر ، افكار للفرح والغنى والحب » تتفاعل مع اللون الاخضر والازرق اللذين يشكلان ظلاً خلفياً يوحي بالاستقرار والسكينة .

لقد انجز اللوحة الاولى « للنسوة الجزائريات » عام ١٨٣٤ ، ثم عـــاد فصورها من جديد عام ١٨٤٧ . هنا يبدو دولاكروا اكثر عفوية في معايشة الجو العربي ، فالاشكال معدلة ، تكوين المكان مبسط ،الاشخاص اكثر انسجاماً، الالوان اكثر احترافاً ، وتركز النور في الوسط ، حتى اصبحت الزنجية الواقفة بقعة من الظل .

وفي عام ١٨٥٧ انجز لوحة اخرى تحت اسم امرأة من الجزائر في مخدعها. ان ابرز ماتتصف به لوحته (نسوة جزائريات) هو الهدوء والسكينة ، هـذا الطابع الذي عبر عنه بودلير بقوله : « انها الزهاء والهدوء والشبق » . واصبح هذا عنوان قصيدته المنشورة في ديوان ازاهـــير الشر ، كما اصبح موضوعاً للوحة لماتيس .

لقد اصبحت لوحة (نسوة جزائريات)مدخلا للشرق العربي بالنسبة للعديد من الفنانين نذكر منهم: فرومانتان ورونوار وغوتوزو وبيكاسو . فمنذ عام ١٩٥٤ استهوى الفنان الاسباني ، بابلو بيكاسو اعادة تصوير الموضوعات العربية ، بعد ان كان قد تأثر بالفن العربي منذ بداية الفن التكعيبي الذي ظهر بعد لوحته (آنسات افينيون) والتي جاءت نتيجة تأثره بالفن العربي في شمال افريقيا ، الا انه في هذه المرة لجأ

الى الموضوعات العربية التي رسمها غيره من الفنانين، محاولا اعادة هذه الموضوعات الى اسلوبها العربي الاصلي كما يقول زرفوس .

ولقد اختار بيكاسو في هذه المرة لوحة « نسوة جزائريات » فكان يمضي الى متحف اللوفر لكي يطلع على تفاصيل هذه اللوحة ويقوم بدراستها كما قام بدراسة تفاصيل اللوحة التي رسمها دولاكروا عن لوحته عام ١٨٤٧ والمحفوظة حالياً في متحف فابر في مونبليه .

ولقد استمر بيكاسو في اعادة رسم هذه اللوحة في وجوه مختلفة حتى بلغ عدد اللوحات التي انتجها خمس عشرة لوحة قضى في انجازها من الثالث عشر من كانون الأول ١٩٥٤ حتى الرابع عشر من شباط عام ١٩٥٥ .

وفي الواقع فان بيكاسو كان قد فكر في اعادة رسم هذه اللوحة على طريقته الخاصة قبل اربعة عشر عاماً من هذا التاريخ ، حيث قام برسم خمس لوحات ورقية صغيرة من دفتر الدوائات الذي وجدنا على غلافه العبارة التالية « رويان royan ١٠ كانون الثاني ١٩٤٠ » . ولقد نشرت اللوحات الاربع المرسومة بالقلم ، والخامسة الملونة ، مكتوب عليها بخط بيكاسو « النسوة الجزائريات » ليوجين دولاكروا في عام ١٩٤٠ .

اما اللوحات الخمس عشرة التي انجزها بيكاسو عام ١٩٥٥ فيبدو واضحاً ان بيكاسو لم يقصد ابداً ان يكون مخلصاً في نقله اصل اللوحة . بل كانت هذه اللوحة وسيلة الى اطلاق المجال امام عقله لتحقيق تركيبات اسلوبية اكثر تطرفاً .

وعدا هذه اللوحة الشهيرة يجب ان نذكر مواضيع الفروسية التي

استقاها دولاكروا من زيارته الى المغرب ، والتي مارسها فيما بعد في اكثر لوحاته .



استقبال السلطان عبد الرحمن ملك المغرب

والواقع ان رسم الحصان في حالة السكون والحركة اصبح من خصائص دولاكروا . ونرى ذلك في لوحاته التي صور فيها الأمير محمـــد تحت اسم

« قائد مغربي في زيارة قبيلة – ١٨٣٧ » والموجودة في متحف تانت ، وكان قد صور قبلها في عام ١٨٣٢ واثناء عودته من مكناس صورة للامير ممتطياً جواده وحوله نسوة يقدمن له الحليب ، وبدا خلفه القصر الكبير . وفي عام١٨٤٥عرض لوحته الشهيرة « سلطان المغرب محاطاً بحرسه أمام اسوار مكناس » والمحفوظة حالياً في متحف طولوز والتي يبلغ ارتفاعها اربعة امتار .

وبقي دولا كروا متأثراً بالجو العربي في المغرب الى وقت متأخر من حياته . فها هو في عام ١٨٥٧ يعود الى رسم سلطان المغرب ثم يرسم الأعراس في المغرب كما انه يعود الى تصوير موضوعات مألوفة مثل « ظهور الوزراء في المعبد» بأشكال اخرى ذات اشخاص عربية وملابس عربية ، كما صور لوحتين فيما بعد لممثلين وموسيقيين عرب .

وهكذا كان المغرب العربي بالنسبة لدولا كروا نقطة التقاء جميع دروبه الفنية ، كما كان منطلقه الجديد لتحقيق الانحلال الذي انحدر اليه الفن في نهاية القرن الثامن عشر . لقد كشف المغرب العربي عن ابعاد جديدة للفن وعن اصول جديدة . وكان على الغرب بعد ان فقد معين الابداع لديه ان يجعل من دولا كروا مقدمة كبيرة للاستشراق الفني ، هذا الاستشراق الذي نما وازدهرت معالمه في الفن الحديث على يد عباقرة الجيل ، ماتيس ، وبول كلي وامثالهما .



زوار الليل

مسرحية من فصل واحد

لعلي عقلة عرسان



المسرح مظلم تماما ... بعد فترة صمت قصيرة يبدأ ضوء أزرق شاحب بالظهور تدريجيا حتى يستطيع الانسان الرؤية . يتضح على المسرح شبح .. شبح انسان جن أومات في الاربعين من عمره .. ذقن طويلة بيضاء .. «ملامح اوديب» قوي البنية من خلال الشيخوخة ، توحي ملامحه بقوة العزم والتصميم . يرتدي ملابس بيضاء ، أو سكرية اللون .

في غمرة السكون المشع الذي تصاحبه موسيقى خفيفة بعيدة (وبفضل الناي الحزين) يبدأ أحمد بالاستيقاظ وكأنه في غفوة .. يرفع رأسه وينظر الى الجمهور في الوقت الذي يكون فيه الشبح آخذاً بالانسحاب والتلاشي شيئاً فشيئاً .. تقترب صورة أحمد وتتضح معالمها بواسطة النور .

يبدأ الكلام بصوت آت من أبعاد عميقة مخاطباً الجمهور :

أحمد ـ انني أكلمكم من وراء جدار سميك .. جدار الموت، اوالنسيان، او الجنون . انا بقايا انسان .. بقايا روح .. هيكل لشبح يدب على الأرض . جئت لأقول لكم :إنني بريء مثل أي طفل من اطفالكم الصغار . لقد اتهمتموني بأبشع الجرائم .. ولكنني لم أبدع الخطيئة ولست أول مذنب على وجه الأرض .

ولدت .. وجدت فيّ ميلا عنيفا الى الحب فأحببت ، وتصرفت في حياتي كما يتصرف أي شخص منكم . كانت لي علاقات مع أناس مثلكم .. وربما مع احدكم .. انظروا (تدخل سعاد أو يضيئها نور في جانب من جوانب المسرح) هذه سعاد زوجتي التي كنت سبباً في شقائها . وهذه المرأة التي تمر كنسمة عاطرة حزينة (تمر هند على المسرح ملفعة بالبياض) كانت حبيبتي وماتت بسببي . وهذان صديقاي

اللذان كنت أقضي معهما بعض اوقاتي الأخيرة . (يظهر سعيد ومحسن في صدر المسرح) .

لابد انكم تدهشون حين تسمعون شبحاً يتكلم .. ولكن فليسأل كل منكم نفسه ألا تسيطر عليه الأشباح فيكلمها ؟؟ أشباح الأموات او الأفكار او الذكريات ؟

انا منكم .. وقد اكون هذه الاشباح .. وبما كنت بعض أسراركم لأنني انسان مثلكم لي كل مساوىء الانسان ومحاسنه .

هذا هو بيتي .. في تلك الزاوية كنت أتمنى ان اضع باقة زهر في أصيص . وهنا كنت اود ان يكون لي مكتب للمطالعة . وفي تلك الزاوية كانت تراودني احلام الاثرياء والفقراء . هناك كنت اجلس وأحلم بأنني عظيم . وأكتسح العالم بغمضة عين . في هذه الغرفة كانت تعيش زوجتي ويوجد بها سريرنا المشترك . وتلك غرفة الضيوف كنت اتمنى ان افرشها فرشاً جيداً ، وكنت أحلم بأن اعلم ابني العزف على البيانو ونظم الشعر . كانت لي احـــلام الشعراء وأخيلتهم .. ولكنني عشت كما يعيش اللص أو الشحاذ .. عفواً استميحكم العذر لقد عشت بالضبط كما يعيش الانسان . غريباً عن كل ما يريد . مبعداً عن احلامه . واذا اردتم ان تعرفوا المزيد عني – وكلي ثقة بأنكم تحبون نبش القبور – فانني بكل سرور أحب ان افضح نفسي وان أعري ذاتي .. هل هذا غريب ؟ بالنسبة لي كلا .. هـذا يخفف بعض الشيء . انني عار امامكم .. انني شبح .. ولكن اليس أحب

اليكم ان تروا جسداً زاهياً بفضائحه وفظائعه ومخازيه من ان تروا هيكلاً عظمياً مخيفاً ؟!؟

حسناً أيها السادة .. سيُدخل اخواني المنضدة .. بينما اذهب أنا لأكسو هيكلي لحماً ودماً .. أي حياة .. وسأعود لأجلس هنا بين رفاقي ونثرثر قليلاً كعادتنا .

(تتغير الاضاءة ... يدخل رجلان ومعهما منضدة وكراس . يضعان ما معهما على المسرح ثم يجلسان حول المنضدة كل على كرسي ويبقى كرسي فارغ .. بعد لحظة يدخل أحمد ومعه صينية عليها أقداح وزجاجات شراب يضعها على المنضدة مرحاً ضاحكاً .. يجلس على كرسيه ويتكلم كأنه يتمم حديثاً سابقاً قطع لفترة).

احمد ــ وبعد ذلك .. ماذا فعلت بها ؟

محسن ــ غادرت البيت وهي تتلوى في مكانها

سعيد ــ ليس هذا اسلوباً لائقاً تعامل به امرأة .

محسن ــ اسلوباً لائقاً ؟!

سعيد ــ نعم .. أقصد .. ليست هذه طريقة حسنة

محسن ــ طريقة حسنة ؟ سعيد ؟

سعيد ــ ماذا ؟

محسن ــ أنت تتكلم عن اللياقة ، وعن الطرق الحسنة .. وتتظاهر ..

سعيد ــ أنا لا أتظاهر بشيء .

محسن ــ سعيد .. البارحة كنت تضرب زوجتك بالعصا وأنا الذي خلصتها من بين يديك !

سعيد - ضربتها لأنها لم تهيء لي الطعام

محسن - وأنا ضربتها لأنني لم أجد من أضرب سواها

احمد - وأنا أضرب زوجتي لأنني أكرهها .. لا فرق بيننا اذن ما دامت النتيجة واحدة . كل منـــا يستطيع أن يرتكب أي ذنب ثم يبرر فعلته .

محسن - ليس دائماً

احمد - في أغلب الأحيان

محسن - محظوظ من يستطيع أن يبرر أفعاله

احمد - اكثر الناس يستطيعون ذلك .

سعيد - أنت على حق .. لقد سمعت رجلاً مهذباً

احمد - لص

سعيد - ماذا ؟

احمد - لص

سعيد - من ؟

احمد - المهذب

سعيد - المهذب لص ؟

احمد - واللص مهذب

سعيد - عجباً انك تخلط بين الأمور

احمد - انني لا أخلط بينها .. انها مختلطة من قبل . حسناً .. ماذا قال ذاك اللص أو ذاك المهذب ؟!

سعيد - قال : « لا أستطيع أن أفهم كيف يضرب رجل امرأة ولا يندم على فعلته . » لقد ندمت على ما فعلت

احمد - ولماذا ندمت ؟

محسن - لأن المهذب قال ان هذا معيب (لسعيد) اليس كذلك ؟

سعيد - ربما .. ولكنني أتساءل اذا كنا نعامل النساء بهذا الشكل فلماذا نحبهن كل هذا الحب ؟

احمد - لأننا نحب المسرة فقط . هيا اشرب ولا تحدثنا عن النساء .

محسن - ولماذا لا تحدثنا عن النساء !؟ لقــد أحببت وأشتاق الى سماع حديث الحب .

سعيد - هل أحببت حقاً ؟

محسن - وهل هذا غريب ؟

سعيد - وتزوجت بمن تحب ؟

محسن - كلا .. (تصدر عن أحمد حركة تعبر عن عدم الجدوى)

سعيد - ولماذا لم تتزوجها ؟

محسن - اوه .. ذكريات .. لأن أهلها أجبروها على الزواج من ابن عمها .

سعيد - العادة .

احمد - انه احق منك بها .

محسن - ولماذا يكون احق مني بها ؟

احمد - لأنه ابن عمها

محسن - ولكنني انا الذي يحبها

احمد - هذا لا قيمة له .

محسن - لا قيمة له ؟؟ يخيل لمن يسمعك انك لا تعرف الحب

احمد - أقول هذا لأنني أعرفه جيداً ..

محسن ـ أرجو أن يكون الأمر كذلك .

احمد ـ (متمماً كلامه) انه ضعف بشري .

محسن ـ أجل .. لابد من الوقوع فيه .

احمد ـ إن أي امراة تصلح زوجة لاي رجل، فلماذا نحب ، ونركض خلف امرأة دون أخرى ؟

سعيد ـ غريب

احمد ـ ماهو الغريب ؟

سعيد ـ تفكيرك

احمد ـ لماذا ؟

سعيد ـ لا ادري... اعتقد انه لابد ان يحب الرجل امرأة معينة يتعلق بها.

احمد ـ أنا لا أهتم بالنساء مطلقاً . إنني اعاملهن واشياء المنزل سواء بسواء. احس ان امرأتي تكرهني كرهاً شديداً ومع ذلك فهي تعيش معي، وتمنحني كل ما اريد ، وتخدمني ، وتحتاني . ماذا يريد الرجل غير ذلك من المرأة ؟ وما الفرق بين امرأتي هذه وامرأة أحبها ؟؟

(يملأ الكؤوس شراباً)

محسن ـ ماذا ؟ تريد أن تشرب ايضاً ؟

احمد ـ إن الليل طويل والشراب كثير .. فلماذا لا نشرب ؟

محسن ـ أنا لا أستطيع . سأشرب معك كأساً اخيرة لأنني اريد أن أذهب.

احمد ـ (وهو يسكب كأساً) لن تذهب ابداً .. انني لا استطيع ان أنام ؟ ولا أطيق أن اسهر وحدي . عندما اسهر وحدي . .أنظر من نافذتي الى الليل فأخاف . . انه مرعب .

محسن - الليل ؟

احمد - نعم

سعيد - ولماذا تخاف ؟

احمد - لا ادري .. احس ان قلبي كوجهي في الليل ... إنني اكرهلونه ... ربما .. وربما .. لا ادري لماذا . انظر اليه من هذه النافذة .. الاتحس مثلي بأنه مرعب ... انه كذلك .

محسن - ربما ...

احمد - انظر الي في عيني ... هل أنا مثله فعلاً ؟

محسن - كلا .

احمد - أحس انني مثله تماماً . ان العالم غامض كالليل ، او ربمـــا كنفس الانسان . ولكنه ليس اشد غموضاً مني . احياناً اشعر انني أشد هولاً من الليل فالجأ الى الخمر ، ولكنها تزيدني رعباً .

محسن - لا تفعل ذلك كثيراً .

احمد - إنني أفعل .. وفي اكثر الأحيان ، عندما يهبط الليل ... ماذا تريد مني أن افعل سوى ان اشرب كي لا أراه وجهاً لوجه . في الليل يكثر اللصوص ، وتخرج الخفافيش والذئاب وتتم الجرائم . أحس ان في داخلي ليلاً وذئاباً وخفافيش وجرائم ... وأخاف ان تخرج ايضاً في الليل .. ولكن .. شيء عجيب .

محسن - ما هو ؟

احمد - عندما تبزغ الشمس فانها تضيء وجهي كما تضيء وجه الطفل فأشعر انني بريء مثله . هل هذا يكفي كبرهان على البراءة ؟

محسن - ما الذي يكفي ؟

احمد - أن تضيء الشمس وجهي كما تضيء وجه الطفل !

محسن - الشمس لا تفرق بين مجرم وبريء

احمد - ولكن لماذا لا تفرق ؟ هذا هو السؤال

محسن - ربما لأن السماء رحيمة .

احمد - اذن ليس هناك وسيلة للتفريق بين الناس من الداخل ؟

محسن - أنت ترى ...

احمد - لابد ان يكون ظني صحيحاً .

محسن - ما هو ظنك ؟

احمد - ظني .. او اعتقادي .. ان الناس جميعاً مذنبون او مجرمون .

محسن - الناس كلهم

احمد - نعم .. كل الناس

سعيد - كل الناس مذنبون ؟

احمد - نعم .. انني ارى ذلك

محسن - ولكن ... لماذا ؟

احمد - في كثير من الاحيان اشعر ان الناس جميعاً كذلك وان العالم ظلام عفن .. من يدريني انك لا تخفي عني جريمة اقترفتها ؟ كيف تميز بين اللص .. بين المجرم .. وغيره من الناس ؟

سعيد - ليس هذا سبباً كافياً لتتهم الناس كافة .

احمد - أحياناً احس انهم كلهم مذنبون . ألم يراودك ابداً مثل هذا الشعور؟

محسن - كلا .

احمد - ربما ... ربما ... انت لست مثلي .. لكل ظروفه وحياته . عندما انظر في المرآة وانا احلق ذقني أحس ان لي عشرين وجهاً .

سعيد ـ ولكن

احمد ـ تافهة ... عميقة ومؤلمة .

سعيد ـ ما هي ؟

احمد ـ ولكن .. تلك . (صمت قصير كل شخص يشرب من كأسه ببرود)

محسن ـ لماذا تسيطر عليك مثل هذه المشاعر .. ان هذا مؤلم .

احمد ـ لا ادري .. اعتقد ان سبب ذلك هو الليل .

محسن ـ الليل ؟

احمد ـ نعم .. الليل .. فكلما حل الليل ارى هذه الرؤية . الليل .. هذه الكلمة تعني الكثير بالنسبة الي . عندما تذكر امامك كلمة ليل .. ماذا تتصور على الفور ؟

محسن ـ (صمت)

احمد ـ قل لي ماذا تتصور على الفور ؟

محسن ـ لم اطرح على نفسي هذا السؤال من قبل .. ولكن .. نعم .. اتصور القناديل المضاءة

احمد ـ انك محظوظ .. ان بيننا فارق عظيم .. أنا اتصور حفراً مخيفة ، ولصوصاً بخناجر ، واحس كما لو ان عاصفة سوداء تجتاح العالم وتطفىء كل القناديل .

محسن ـ لا تكن سوداوي النظرة .

احمد ـ لم اخلق العذاب .. ولكنني اتعذب .

سعيد ـ وما الذي يعذبك ؟

احمد ـ كبر العالم ، وصغري وعجزي ، وقوة الأشياء . وعلى الأخص الصدفة .

سعيد ـ الصدفة ؟

أحمد ـ نعم الصدفة . اريد أن أفهم .. هل يتحكم بها احد ؟

سعيد ـ لا ادري

احمد ـ تمر بي لحظات احس فيها ان كل ما في الوجود من فعل الصدفة وان الارادة لادور لها فأحقد على العالم .

محسن ـ بحث عقيم

احمد ـ تعتقد ؟

محسن ـ أجل

احمد ـ عندما افكر كثيراً في هذا الامر احس ان العالم يدور وانني في كهف خانق الهواء، محكوم علي بالبقاء . احاول الخروج فأخاف . وابقى في دوار . الصدفة طليقة كالعاصفة الهوجاء والليل خارج الكهف

محسن ـ والكهف خانق

احمد ـ والعالم يدور

سعيد ـ وضع محزن . من المؤلم ان تفكر هكذا .

احمد ـ ولكن .. فلنعد لليل . تكلما عن الليل .. انني انظر من النافذة فيغوص نظري عبر الليل . احب ان نتحدث عن الليل ، هل هو كالبحر ؟ أظنه كالبحر . احسه في داخلي كالبحر .
(لمحسن) ماذا يعني الليل بالنسبة لك انت ؟

محسن ـ ذكرى .. في الليل كنت ادور حول بيت حبيبتي وكانت تنظر الي من النافذة فأقبلها احياناً . وفي الليالي المقمرة ابتعد عن البيت وتتبادل الاشارات . ذكريات . كان الليل يسترنا ولذلك لايتبادر لذهني عندما تذكره الا قنديلها المضاء ، وانه ستر .

احمد ـ وانت ياسعيد ؟

سعيد ـ الليل .. لا أحبه كثيراً

احمد ـ لماذا ؟

سعيد ـ تصور انك تسير في طريق وأن لك عدواً يتربص بك في احدى الزوايا ومعه سكين . ان الليل يمكنه من ان يقتلك .

احمد ـ هل يكون شريكا في الجرائم اذن ؟

محسن ـ لا اظن ذلك

سعيد ـ بل انه المجرم نفسه

احمد ـ في هذه الحالة يجب ان اكرهه .. لا ان اخافه . نعم .. انه المجرم

سعيد ـ نعم . نعم . ان مثل هـذا العمل . لايحدث في النهار بسهولة. وفي الليل ايضاً تمشي الضباع في الطرقات .. ويقولون ان القتلى يظهرون في الليل .

احمد ـ وهل هذا صحيح ؟

سعيد ـ نعم .. لقد حدثني جارنا الشيخ صالح انه رأى ناراً زرقاء وسمع أنات وحشرجات في المكان الذي قتلت فيه هند .

احمد ـ هند ؟

سعيد ـ نعم .. هند . الا تتذكر ذلك . لقـد قتلها اخوها في الليل .. هربت منه ولفظت انفاسها في الطريق وهو يطعنها بالخنجر .

محسن ـ هل تعرفها انت ؟

سعيد ـ نعم

محسن ـ بنت جميلة .

سعيد ـ زانية .

محسن ـ لقد أحبت . فهل ذلك معيب ؟

سعيد ـ ولكنها حبلت وافتضح امرها بين الناس

محسن ـ ألم يُعرف الشخص ؟

سعيد ـ لم تبح باسمه ابداً

محسن ـ انه جبان

سعيد ـ لماذا ؟

محسن ـ كان يجب عليه ان يتزوجها . . ولكنه صمت كجرذ وتركها للعار والخناجر .

سعيد ـ لقد ارتاحت هي . . اما هو . . فما يدريك . . ربما كان يتعذب الآن .

محسن ـ من الذي يعذبه ؟ لو كان سيفكر بها لما أسلمها للموت

سعيد ـ للانسان رب وضمير

محسن ـ لو كان له ضمير لما فعل بها مافعل . . مارأيك يا احمد ؟

احمد ـ ماذا ؟

محسن ـ مارأيك بذلك الشخص الذي فعل بهند مافعل ؟

احمد ـ لاادري لكل ظروفه

محسن ـ من المؤكد انه كان يعرف انها حامل . . كان يجب عليه اذن ان يتزوجها أو ان يفعل اي شيء من اجلها .

سعيد ربما لم يستطع .

احمد ـ وربما تدخلت الصدفة .

محسن — الصدفة . ومادخل الصدفة في هذا الموضوع ؟

احمد — لا ادري ان الصدفة تنفصل عن اي موضوع . خـذ انت مثلا . نحن . لو لم اصادفك في الطريق الآن لما اتينا الى هنا .

محسن — ولكن ليس هذا شبيها بذاك .

احمد — لو لم انظر صدفـة عبر النافذة وأرى الليـل لما تحدثنا في هذا الموضوع .

محسن — لاتلغي الصدفة ارادة الانسان

احمد — ولا تلغي ارادة الانسان الصدفة .

سعيد — دائماً تتكلم هكذا

احمد — بل اعتقد ان الصدفة تفعل كل شيء .

محسن — هذا ضعف

احمد — ربما . ولكنني لا اعتقد ذلك . لقد قهرت الصدفة ارادتي مراراً .

سعيد — انا لم اكن انتبه لهذا الامر . فعلا ان الصدفة تتدخل في حياتي .. ولكن .. اقول لقد وقع خطأ .

محسن — القدر والصدفة ، عكاز العاجز .. هذا ما اعتقد

احمد — لم تجرب شيئاً .. انك تحلم .

محسن — انا اعيش .

احمد — انا الذي اعيش انا الذي اعاني . انا ضحية الصدفة .

محسن — ماهي الصدفة التي انت ضحيتها

احمد — كفى .. كفى لاتتحدث في هذا الموضوع .. انني اخشى الحديث عن هذه الاشياء ولا سيما في الليل

محسن ـ ربما كنت متعباً .

احمد ـ كلا

محسن ـ سننصرف نحن .. ونم أنت

احمد ـ كلا .. كلا .. لا تظن اني ..

محسن ـ لم أظن شيئاً .. فقط لقد مضى الليل .. ونريد أن نذهب ..

احمد ـ ابقيا ارجوكما .. انني .. كنا نتحدث فقط في موضوع .. ونريد أن نذهب ..

سعيد ـ لا .. لا .. في المرة القادمة سنبقى مدة أطول .. وداعاً

محسن ـ الى اللقاء .. لا تخش الليل فانه لا يخيف الا الخائف

احمد ـ لقد امضينا الوقت في الحديث عن الخوف . كنت لا أحب أن نتحدث في هذا

محسن ـ انت الذي تحدثت ..

احمد ـ قلت لك صدفة . نظرت عبر النافذة فرأيت الليل .. لو لم أره لما تحدثت عنه

سعيد ـ حسناً .. في المرة القادمة لن نتحدث عنه . سنلتقي غداً . وداعاً الآن .

احمد ـ الى اللقاء

محسن ـ فكر بأن الشمس ستشرق في الصباح وستضيء وجهك كما تضيء وجه الطفل . هذا ينسيك رعب الليل .

احمد ـ سأحاول .. (يخرجان) مع السلامة

(يغلق احمد الباب ثم يعود بخطى وئيدة ويجلس خلف منضدته . يشرب كأساً ويضع رأسه بين كفيه ويتكىء بمرفقيه على المنضدة . تمر فترة زمنية ، الغرفة ساكنة ، والنافذة مفتوحة يحركها الهواء . .

احمد مستغرق تماماً في افكاره و كأنه في غفوة . فجأة يدخل عجوز يتوكأ على عصا .. لحيته بيضاء .. انه نفس العجوز الذي ظهر في افتتاح المسرحية . يضع يده على كتف احمد ويهزه .. يجب ان يكون دخول العجوز مفاجئاً وبسيطاً بنفس الوقت)

احمد ـ اتركني

العجوز ـ كلا

احمد ـ كيف دخلت

العجوز ـ النافذة مفتوحة . تعرف ان نافذتي دائماً مفتوحة ، وانني استطيع الدخول في أي وقت

احمد ـ ان هذا هو الشيء المرعب . لماذا اتيت ؟ ماذا تريد ؟

العجوز ـ أظن انك تحتاج الي ؟

احمد ـ أنا .. لا .. أبداً . لا احتاج اليك مطلقاً .

العجوز ـ معك الحق .. حتى ولاتريد ان تتذكرني . فلنقل اذن انني أنا الذي احتاج اليك .

احمد ـ اتركني ارجوك . لا أريد ان ادخل معك في حديث عقيم .

العجوز ـ لاتستقبلني هكذا .. اعرف انك لاتطيق رؤيتي ولكن لا يمكننا ان نفترق .

احمد ـ هذا هو المؤلم .. قل لي ماذا تريد ؟

العجوز ـ لقد تعبت من التشرد .. ان البرد قارس في الخارج .. والطرقات وعرة . اريد ان استريح

احمد ـ اذهب واسترح

العجوز ـ أين ؟

احمد ـ في حفرة .. في كهف .. في الجليد .. أومت .

العجوز ـ لاأستطيع .

احمد ـ لماذا ؟

العجوز ـ لايقدم الانسان على الموت وهناك ادنى أمل في الحياة .

احمد ـ هذا ماأقوله أنا ايضاً .

العجوز ـ هل تخشى الموت ؟

احمد ـ نعم

العجوز ـ مثلي تماماً .

احمد ـ هل نعيد سماع نفس الاسطوانة كل يوم .

العجوز ـ دعني هنا إذن .. اريد ان ارتاح .. أن اشعر بلذة الراحة .

احمد ـ هنا ؟

العجوز ـ نعم .. هنا .. اعرف ان ظلي ثقيل كهذا الليل الذي آتيك فيه .. ولكن .. ماعليك الا ان تتذرع بالصبر .

احمد ـ الصبر ؟

العجوز ـ يجب ان نصل الى حل الليلة . اذا جلسنا معاً وتحدثنا طويلا فربما نصل الى حل

احمد ـ دعني من هذا .. لنجلس صامتين . أتريد ؟

العجوز ـ مستحيل

احمد ـ لماذا ؟

العجوز ـ لايمكن ان نجلس صامتين .. ان الصمت مخيف لاسيما في الليل .

احمد - لاتتحدث عن الليل .

العجوز - ان الليل في داخلنا عبثاً نهرب منه .

احمد - ان كلماتك دائماً جارحة . اذا كنت مصراً على ان نتحدث عن الليل اجبرتك على ان تتركني فوراً .

العجوز - لاتطردني .. أعرف ان أرض الله واسعة ولن تضيق بي ، ولكن البرد قارس ، والدروب وعرة وليس لي من الجأ اليـــه سواك . (يجلس ويلقي عصاه) اف لعنة الله على التشرد . ان في الطرقات حجارة ناتئة كأنها رؤوس الشياطين تدمي القدمين ، وتهد العزيمة . ألا تحس وخزها في قدميك ؟

احمد - نعم . هل مشيت طويلا ؟

العجوز - انني دائم التنقل كما تعلم .. ولكنني الآن اشعر بالراحة معك كأنما اعود الى بيتي من سفر .

احمد - اما انا فاشعر انني اخرج من بيتي .

العجوز - نفس الاحساس القديم . الاتريد ان نصل الى حل ؟

احمد - لاأستطيع .. لاأظن هذا ممكناً .

العجوز - هذا لن يحل المشكلة .

احمد - ستبقى المشكلة قائمة .

العجوز - لاتكن جباناً .

احمد - ولكن ..

العجوز - انك تهرب دائماً .. يجب ان تنظر الى الليل وجهاً لوجه كي تستطيع مواجهة ليلك .

احمد - بحق الله والشيطان . . لاأريد ان اراك . (ينهض احمد ويتجه الى داخل البيت .. الى احدى الغرف .. يتكلم العجوز بنفس الوقت بطريقة تتلاشى معها الكلمات وتخفت كلما ابتعدت الخطى .)

العجوز - وهل سأبقى مجرحاً تعذبني خطاياك .. انني ظامىء للنور .. للراحة (يعود احمد ومعه زجاجة خمر .) زجاجة أخرى . . حسناً هذا يساعدك على تمضية الوقت .

احمد - أمازلت هنا ؟

العجوز - الى اين تريدني ان اذهب ؟

احمد - الى حيث ألقت .

العجوز - تعرف ان هذا غير ممكن .

احمد - أعرف .

العجوز - كنت قبل قليل مع هند .

احمد - هند ؟

العجوز - نعم .. هند .. لايمكن ان ننساها .. العينان والمبسم .. الشعر الطويل .. القوام الحلو .

احمد - (يمر بيده على جبينه ناظراً الى العجوز) كانت مخلصة .

العجوز - عندما اغمدوا في عنقها الخنجر .. أتصور انها كانت تحمي جنينها بيديها . . الا تظن ذلك ؟

احمد - بحق الله اسكت .

العجوز - لم تشأ ان تصرح باسمك .. نعم .. انها مخلصة ..؟! (صمت) انني

اعيش معها في مكان واحد .. وأسمع انينها وشكواها .. لقد حفظت حياتك .. اما انت .

احمد ـ لم يكن بامكاني ان أفعل شيئاً .

العجوز ـ لوتذكرت حالتنا هذه ... لوتخيلت مثل هذه الجلسات التي نعقدها دائماً ... لوتصورت عنقهـــا الابيض بين سكاكين حادة ... لو تصورتها في آخر لحظاتها ... لاستطعت ان تفعل شيئاً .. ولكنك هربت يومئذ الى مكان ما كجرذ مذعور .اختفيت عن الانظار .

احمد ـ لم أهرب ... تعرف جيداً انني لم أهرب ... ذهبت منأجلها..من أجلنا .. ولكن .

العجوز ـ ولكن ؟

احمد ـ أنت تعرف انه لم يكن بامكاني أن أفعل شيئاً وانماحدثحدث رغم ارادتي

العجوز ـ لو كنت ؟

احمد ـ دائماً ...لو..لو..لو.. وأنا أقول ولكن . لن نصل الى شيء .

العجوز ـ ذلك لأنك تهرب دائماً من الواقع وتتهم الحظ والصدفة .

احمد ـ ولكن الصدفة فعلت كل شيء .لولم أكن مسافراً يومها .. لأنقذتها أولمت معها .

العجوز ـ لماذا لم تهرب معها قبل ذلك .

احمد ـ كنت أبحث عن المال والمساعدة . ليس من السهل ان يهرب المرء مع فتاة دون أن تكون لديه الامكانيات الكافية لحمايتها . تعرف هذا جيداً .

العجوز - وحين اكتشف امرها .

احمد - لم أسمع بالأمر ...لم تخبرني بأن أمرها قد اكتشف .. لقد تم كل ذلك بسرعة .. لو أخبرتني .

العجوز - كان يجب أن تتوقع ذلك ... بعد أربعة أشهر من ..

احمد - كان يجب ... كان يجب .. ولماذا كان يجب ؟ أقول انني لم أتوقع شيئاً وكفى .

العجوز - وبعد ذلك .. لماذا تزوجت .. وكيف تزوجت ؟

احمد - فكرت ان هذا ينسي .

العجوز - كنت تريد أن تنسى إذن ؟

احمد - (صمت قصير) أجل ولكنني لم استطع .. وها أنذا أتعذب .

العجوز - أي عار ...

احمد - كفى بالله ... لاتلح علي هكذا

العجوز - مذنب .. مسؤول ..مسؤول

احمد - هل جئت تنتقم لها ؟

العجوز - كلا ... انها ستنتقم لنفسها ... ستزورك ربما لتعاتبك أو ربما لتنظر اليك بصمت وتبتسم لك . او لتنثر امامك شعرها المضمخ برائحة الدم والتراب .

احمد - كفى .. كفى

العجوز - وأنا أيضاً جئت ...

احمد - كفى .. انني لا أحتمل شبحها المرعب ولاذكرى زواجي الأليمة . اقتلني اذا كنت تستطيع .. ولكن لا تعذبني هكذا .

العجوز - انا اقتلك ؟.. تعرف ان هذا لايجدي ولا يمكن.. يجب ان نبحث عن حل آخر غير الموت .

احمد - ماهو ؟

العجوز - هل تفضل الألم ؟

احمد - الألم ؟.. انني لا أطيقه

العجوز - لاتطيقه .. انك لاتنشد الا النسيان .

احمد ولكنني لم أنس .. ولا استطيع ان أنسى. ان كل شيء تجسم امامي ويلاحقني .. في مثل هذه الساعة من الليل كنا نلتقي وتنظر الي فأرى بريق عينيها في الظلام . لقد كانت بصفاء السماء الزاهرة ..

العجوز - كانت تحدثك عن عشها المقبل ..وتبتسم لك . كانت امرأة .

احمد - يدها .. اصابعها تتخلل شعري وتداعبني .. بأبة حيوية ووضوح تعد تلك الذكريات .

العجوز - كانت تحب الريحان .. وتهديك عند الغروب ريحانة .

احمد - كفى .. لا أريد أن أغرق في الذكرى والندم .. لا أريد أن انظر الى أبعد من هذه اللحظة . لا أريد .. اتوسل اليك ان تتركني .

العجوز - تعرف ان هذا غير ممكن .

احمد - يا الهي .. انني اشعر بالدوار .. ان ذنوبي اصبحت تتجسد امامي بشكل مرعب .. عدت لا أقوى على النظر في وجوه الناس .. كلما مشيت في الشارع احس ان كل واحد منهم يشير الي باتهام واضح . عدت لا اقوى على رؤية الليل .. اريد ان انسى .. ولكن كلما أعود الى البيت وأرى الأخرى تبكي احس ان ذنباً آخر يكبر في قلبي ..

كل شيء يشعرني بالألم .. كل شيء قاتم .. مخيف .. كل شيء .. حتى الرحمة نفسها مؤلمة .

العجوز - هل تحس بالألم تماما ؟

احمد - اتركني

العجوز - لن اتركك ابدا .. ان مايهمك هو ان تبقى في الظلام .. راضياً عن التي تحميك .. تصم أذنيك كي لاتسمع الانين وانسكاب الدموع والطواف الدائب حول بيتك ، هناك عيون تـُصْلبُ ناظرة اليك كلما ضمكما انت وزوجتك فراش .. عيونها وعيون الآخر . عيون فيها حسرة وأسى ولوم .. لماذا تصم أذنيك وتحجب عينيك ؟

احمد - اسكت

العجوز - هل تحب ان تسمع صوتاً آخر حلواً يكلمك عن هذا .. استمع اليه ... استمع اليه .

(يدخل شبح هند)

الشبح - ياحبيبي .. جئت اعطيك ريحانة .. لاتؤاخذني .. ان بها رائحة الدم .. لم يكن ذنبي .. كنت احملها حين فاجأني بخنجره .

احمد - هند ..

الشبح - لقد قضيت ليال طوالاً اطوف حول بيتك أبلل تراب الدرب من جرحي الراعف ابداً كي يورق الحب . وأنظر بعينين جرحها الليل الى قنديلك المضاء وجرحي دام كالشروق .

احمد - أتوسل اليك ان تدعيني بسلام .

الشبح ـ ياحبيبي ..

احمد ـ اتوسل اليك .. سامحيني . انني لا أقوى على تحمل نظراتك العاتبة . ان حياتي بعدك جحيم .. أنا نادم على مافعلت .. لا اجرؤ على النظر اليك .. اذهبي .. أتوسل اليك .. اذهبي .

الشبح ـ الى اين تريدني ان اذهب وليس لي احد سواك . اصبحت اخيف الناس . حتى النار التي اوقدها في انصاف الليالي كمصباح تهتدي به الى مكاني .. لأحيي بها ذكرى لقاءاتنا .. حتى تلك النار اصبحت تخيف الناس . لم يعد لي احد سواك ياحبيبي .. كل الأحياء يلعنونني حتى امي .. ألم تسمع ذلك بأذنيك ؟ لا أريد ان اغادرك ابداً .. لا اريد .. احبك .. طفلنا في الجنة .. ودمائي كالعصافير .. اضمها فتطير نحوك .. احبك .

احمد ـ هند .. كفي عن مطاردتي . ماذا تريدين مني وقد اصبحت جثة .، ذكرى .. شبح .

الشبح ـ اريد ان انظر اليك ياحبيبي .. واذكرك بأنني أنة زرعتها قسوتك على الهضاب المجاورة . لأذكرك بخطى تدق درب بيتك كل ليلة ، وبعينين كنت تحبها .

احمد ـ لم استطع عمل أي شيء .. ما الذي استطيع ان اعمله الآن؟ماالذي تريدين ان اعمله .

الشبح ـ فات الأوان .. لن تستطيع ان تفعل شيئاً من اجلي .. لا اريد سوى ان تذكرني دائماً .

احمد ـ لا استطيع الا ان اذكرك دائماً .

الشبح ـ ألا تريد ان ترى طفلنا ؟

احمد ـ (يبكي بصمت)

الشبح ـ تعال معي .. تعال انظر اليه .. ان له شعراً جميلا وعينين كعينيك

احمد ـ هند ..

الشبح ـ تعال .. انه يلعب بالأعشاب .. سيجلس الى جانبنا يناغي العصافير ويضاحكنا .. تعال (تمد له يدها)

احمد ـ الى أين ؟

الشبح ـ الى الحقول ..

احمد ـ الحقول ؟

الشبح ـ هناك سيضمنا مكان واحد .. فراشنا الأرض .. وسترى السماء .. تعال .. تعال ..

العجوز ـ أتجبن ؟.. اتبعها

احمد ـ (صمت)

العجوز ـ انها جميلة .. وستبقى جميلة ... هيا يكفيك جبناً .

احمد ـ اسكت انت .. اسكت .. لقد سببت لي كل هذا .. لقد أصبحت شبحاً بسببك .. لولاك لولاك

العجوز ـ لولاي .

الشبح ـ تعال .. ان الطفل سيبكي .. يجب ان ارضعه الآن .

العجوز ـ هيا تكلم .. انظر اليها .

احمد ـ انصرف انت .. انصرف عني .. لا أطيق ان اراك .. اذهب .. اذهب . (يضربه بكأس)

(تدخل سعاد زوجة احمد)

سعاد ـ احمد .. مابك ؟

احمد ـ لا اريد ان انظر الى ابعد من ذلك .. لا اريد .

سعاد ـ احمد .. مابك .. قل مابك .

احمد ـ ابعديه عني .. لا اريد ان اراه .. لقد أتيا ليأخذاني .. هو السبب .. هو

سعاد ـ من هو ؟

احمد ـ انني لا أخاف غيره .. اخاف ان

سعاد ـ تخاف ؟

احمد ـ نعم

سعاد ـ مم تخاف ؟

احمد ـ ابعديه عني ..

سعاد ـ ولكن من هو ؟

احمد ـ ألا ترينه ؟

سعاد ـ كلا

احمد ـ ألا ترين أحداً هنا ؟

سعاد ـ كلا ..

احمد ـ انه هناك .. أتى ليحاسبني .. انه ينظر الي الآن .. أحس ان نظراته تخترقني .

سعاد ـ لا ارى احداً هنا .. لايوجد هنا أحد .

احمد ـ وهي .. ألا ترينها ؟

سعاد – هي

احمد – اريد ان اذهب معها .. ولكن هو .. هو الذي يخيفني .. أخشى ان يفسد علي حياتي هناك أيضاً .

سعاد – احمد .. أنت مرهق .. تعال .. يجب أن تنام .. تعال .

الشبح – تعال معي .. إن طفلنا يبكي ..

سعاد – تعال ..

الشبح – تعال ..

سعاد – تعال ..

الشبح – تعال ..

(يسد احمد أذنيه بيديه ويبدو أنه يعاني كثيراً .. بعد فترة من التأوجع يسقط على كرسيه .. فترة زمنية قصيرة ... الاضاءة شاحبة .. الشبح جامد في مكانه ماداً يده نحو احمد .. العجوز واقف جامد في الظل ... سعاد جالسة بجانب أحمد ... تعطيه ماء ، وهو يرفع رأسه قليلا) .

احمد – ها أنت ذي أمامي ... إنني أرى وجهك بوضوح وبما للمرة الأولى .. وأرى الأخاديد التي حفرها في وجهك الدمع ... لقد سببت لك الألم طويلاً .. أما الآن فلم أعد استطيع الاستمرار في ذلك . لقد قسوت عليك حين أجبرتك على الزواج مني ... احس بعذابك معي ، وبيكائك على الآخر . انني أتعذب أنا أيضاً . لقد فكرت أن زواجي منك سينسيني الأخرى ولكنني وجدت انني احمل وزر ذنبين في آن واحد .. لم تعد لي قدرة على الاحتمال .. ان الليالي

لاتمر بسهولة على انسان يتعذب . كل يوم تقسو علي الذكريات اكثر من سابقه .

سعاد - ما الذي يعذبك ؟

احمد - هل تحبينني ؟

سعاد - نعم

احمد - بصدق ؟

سعاد - (صمت)

احمد - تكلمي بصراحة .. وانسي لمرة سلطتي عليك كزوج وابن عم .. لاتخشي شيئاً .

سعاد - إنني مخلصة لك على كل حال .

احمد - بدافع الخوف .

سعاد - لقد مضى كل شيء الآن .. لاتفكر في ذلك .

احمد - احس انني ارتكبت خطأ فاحشاً حين أصررت على الزواج منك . لم احترم حبك، ولم احترم ذكرى حبي . أنا أحببت مثلك .. عندما أدخل البيت وأراك تبكين احس انني اقترفت ذنباً مضاعفاً .

سعاد - لماذا لم تتزوجها إذن ؟

احمد - دعيها وشأنها .. انها مرتاحة في وضعها .. أما أنا .. فأنت ترين مقدار عذابي .

سعاد - هل هي ..؟

احمد - مجتمعنا ضيق .. ومعذلك لم يعرف علاقتنا أحد .. انها تنتظرني .. وانت هناك من ينتظرك

سعاد - احمد ..

احمد - لايمكنني أن استمر على هذه الحال . انا مذنب ولا أريد أن اشركك

في مصيري المؤلم .. عيشي كما تريدين .. اهربي مني .. ولن أقسو عليك هذه المرة .. ان الرجل الذي اقدم على خطبتك لم يتزوج بعد وهو مازال يحبك .. اذهبي اليه

سعاد ـ ولكن ..

احمد ـ ولكن ماذا ؟ .. ليس هناك أدنى أمل بخلاصي ... لن اكون انسانا سويا .. لم أعد سوى شبح انسان .. سوى ظل لجريمة .. لن تكفي ايامي الباقية للتكفير عما فعلت .. تكفيني جريمة واحدة .. لست بحاجة لأن اشعر كل دقيقة بأنني امتص دماء شبابك لألقيك بعد ذلك كالقشرة .

سعاد ـ احمد .. لن ابكي .. لن اقول شيئاً

احمد ـ لاتشفقي علي .. انني لا استحق الرحمة .. انها تطلبني وسأذهب معها بعيداً عن هذا المكان ربما الى الحقول .. ربما الى الصحراء .. لأحس هناك بأني معها .. وبأنني اشاركها المصير .. فربما .. ربما .. ارتحت قليلا .

سعاد ـ احمد ..

احمد ـ تزوجي فوراً ، اكسبي بقية عمرك .. وسامحيني .

سعاد ـ (تبكي بصمت)

احمد ـ لقد صبرت كثيراً معي .. كانت تتحكم بي العادة ، والحق القديم الذي لي عليك كابن عم لك . ولكنني مللت هذا السلاح وأدركت ألا فائدة من الاستمرار في ذلك . ارحمي شبابك .. اذهبي الى ذلك الرجل وقولي له : « لقد تركت زوجي من أجلك » انه يحبك ولن يقول شيئاً .

سعاد ـ (صمت)

احمد ـ هل اذهب اليه انا وأقول له ذلك ؟

سعاد - كلا .. ارجوك

احمد - لاتنتظري لحظة واحدة ، ولا تفشي سري .. وداعاً (يمشي باتجاه الباب نحو الشبح)

سعاد - انني امرأة .. انني امرأة الآن واحمل جنينا هو ابنك (تبكي)

العجوز - انك تترك وراءك ضحية أخرى

احمد - هكذا الانسان دائماً .. هكذا الانسان دائماً .. حاولت ان اكون شريفاً ولكن .. لا ادري ما الذي منعني ان اكون .. لا يقدم الانسان على عمل الشر بارادته . لا ادري . هناك قوة تجبر الانسان على ان يكون انانياً وآثماً في نفس الوقت . ربما كان ذلك الجبن ، او حب الحياة ، او قسوة الأحياء .. لم استطع ان اقاوم هذه القوى .. هل قدر لي ان اكون مجرماً وجباناً؟ هل هناك مقدر ؟ ام هي الصدفة ؟ كل ذلك محير . اما انا .. انا هذا الجسم هذا الوجود .. فلم استطع ان اكون الا ما انا الآن . هذا انا .. هذا انا .. هند .. انظري الي .. انني امامك .. مستعد للذهاب الى اي مكان تريدين .. ربما لأكفر عن ذنبي .. وربما لأهرب من ذنوب اخرى .. ربما كان في هذا شجاعة او جبن .. لا اعرف ولا يهمني ان اعرف .. كل شيء واضح الآن .. لماذا تبتسمين ؟

الشبح - يا حبيبي .. يا حبيبي الجبان . تعال .. تعال ..

(تمد له يدها ويخرجان يتبعها العجوز .. وتبقى سعاد في مكانها تبكي .. يتعالى صوت بكائها ترفع رأسها باتجاه الجمهور .. وتقول من خلال دموعها)

سعاد - من هو المذنب .. هو .. ام انا .. ام الصدفة .. ام الناس ..؟ واذا عرفت فما جدوى ان اعرف .

ستار

مطبوعـــات وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومي
التي تقوم بتوزيعها دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر

قصة الأرض في سورية	لمنير الشريف
المحكم في نقط المصاحف	لأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني تحقيق الدكتور عزة حسين
برنامج شيوخ الرعيني	لأبي الحسن علي بن محمد بن علي الرعيني الاشبيلي تحقيق ابراهيم شبوح
ديوان ابن مقبل	تحقيق الدكتور عزة حسن
مقدمة في النحو	لخلف الأحمر تحقيق عز الدين التنوخي
تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب	لابن الفوطي تحقيق مصطفى جـــواد (الجزء الرابع الأقسام ١-٢-٣)
إعلام الورى بمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى	لمحمد بن طولون الصالحي الدمشقي تحقيق محمد احمد الدهمان
الأزمنة والانواء	لابن الاجدابي تحقيق الدكتور عزة حسن
قصة الجلاء عن سورية	
روضة الورد	لسعدي الشيرازي ترجمة محمد الفراتي
روائع من الشعر الفارسي	لسعدي الشيرازي ترجمة محمد الفراتي
دورة الربيع	لسعدي الشيرازي ترجمة محمد الفراتي
محافظة السويداء	لشبلي العيسمي وحمود الشوفي وداوود غر
تاريخ المعرة	(جزءان) لسليم الجندي تحقيق عمر رضا كحالة

محافظة حماه	لمؤيد الكيلاني
حكايا جوقة التماثيل	لسعد الله ونوس
تحت سماء الأندلس	لزكي قنصل
الفن والأدب	للويس هورتيك ترجمة الدكتور بدر الدين القاسم الرفاعي
أحاديث العشيات	للدكتور عبد السلام العجيلي
اتجاهات الفنون التشكيلية	لعفيف بهنسي
فن العرائس وتحريكها	لبوجو كوكوليا ترجمة نجاة قصاب حسن
الفولكلور الغنائي عند العرب	لنسيب الاختيار
محاضرات الموسم الثقافي	(الأجزاء ٤ - ٥ - ٦ - ٧)
الشمس الغاربة	لأسامو دازاي ترجمة فائز بشور
قال الراوي	لالياس فرحات
زهرة النار	لعبد الكريم الناعم
الموقع الستراتيجي العربي	لهيثم الكيلاني
شرح ديوان عروة بن الورد	تحقيق عبد المعين الملوحي
الاشتراكية في البلدان المتخلفة	لمحمد الجندي
مسرحية الحياة حلم	لكالدرون ترجمة نجاة قصاب حسن
اللاميتان	للطغرائي والشنفرى
الأسطورة اليونانية	لفؤاد جرجي بربارة
حبات زمرد	لشفيق المعلوف
مسرحية البقة	لفلاديمير مايا كوفسكي ترجمة عماد حاتم
مئة قصيدة من روائع الشعر الحديث	ترجمة سليمان العيسى وناديا الياس
مسرحية سيدة الفجر	لالخاندرو كاسونا ترجمة علي الأشقر

الفنان :

- عبد الظاهر مراد
- مواليد حمص
- درس الفن في كلية الفنون الجميلة في روما .
- يعمل مصمماً للديكور ، ومدرساً للفنون في حمص .

اللوحة :

طبيعة صامتة .

تمثل مرحلة جديدة من أعماله . اهتم بالتكوين . ووزع عناصر اللون بلمسات تأثيرية ذات حساسية عالية . ألوانه صريحة ، وانفعالي في اسلوبه بشكل عام .


MURAD
66

كتاب المعرفة



عرض وتلخيص : عبد الوهاب الأزرق

بالأمس طالعت الكتاب الممتع عن علامة الشام الشيخ جمال الدين القاسمي بقلم ولده ظافر القاسمي . وعلم الله اني من المعجبين بالاستاذ العظيم طيب الله ثراه وخلف ذكراه ، واني ما لقيت ولده مرة الا ذكرت في نفسي شعر مهيار وحرفته قليلا عن موضعه وتغنيت به قائلا : ليت لي في الناس أب مثل أبيه ... ولكنني اليوم وقد قدر لي ان أطالع هـذا الكتاب انعكست الآية وصرت أردد قولاً آخر وأنشد قائلاً : ليت لي في الناس ولداً مثل ولده ...

ولم يكن مبعث ذلك إلا هـذا البر الذي ليس كمثله بر يلمسه القارىء في كل صفحة من صفحاته وأكاد لا اغلو اذا قلت في كل سطر من سطوره .

وكلنا يعلم ان القاسمي الصغير أنتج الكثير من الآثار في اللغـة والأدب والتاريخ والقانون ونشر فصولا ممتعة وصوراً صادقة عن حيـاتنا السياسية والثقافيـة والاجتماعية ولكنه لم يرم ويقرطس كما رمى وقرطس في كتابه الجديد عن والده العظيم رضوان الله عليه .

ومن الانصاف ان أقرر ان حياة العلامة جمال الدين حافلة بالمآثر والمناقب ، ومواهبـه ومواقفه تغري كل باحث بالتحدث عنها والتنويه بروائعها الأخاذة واحداثها المثيرة وأدوارها البطولية ، وقليلون جـداً من أوتوا مثل ما أوتي الشيخ رحمه الله من عود صليب ورأي مصيب وذكاء نافذ بعيد ورغبة في الاصلاح لا تعدلها رغبة ... إلا اني على وفرة هذه الخصال والخلال لا اعتقد ان أحـداً من الباحثين مهما رزق من الدقة والتعمق والتبرؤ من الهوى وحسن تقدير الامور ومواجهة الوقائـع على نحو مستقيم من التفكير يقوى على لقاء هذا العبء بمثل ما لقيه ولده المحب البار ...

وقد لا يجد القـارىء في الكتاب البحث المفصل والدرس العميق ولكنه لابد ان يلمس جهداً كبيراً من الاستقصاء

والتأمل وصدقاً في الرواية والنقل وبراعة فائقة ومهارة ممتازة في تنظيم هـذه الاشياء الكثيرة التي طفحت بها جعبته وترتيبها أحسن ترتيب وتقديم بعضها على بعض في الأكل ...

ولا شك عندي ان كل من يطالع هـذا الكتاب يحس معي ان المؤلف لم يكتب ليحلل ولا ليفصل القول في آراء والده ، وانما كان حده المتصل ونشاطه الخصب في كل ماحاوله ان يصور لنا بأمانة وصدق وبريشة دقيقة الى أبعد حدود الدقة حياة والده وعصره وخواطره وسوانحه ونظراته ومراسلاته . وهذه الصرخات المدوية التي هزت مجتمعه هزاً عنيفاً فأيقظت النيام وما أكثرهم وروعت الظالمين وشياطين الأنس وما أشد عتيهم وبغيهم واستكبارهم ..

فهذه الصفحات السبعمئة التي احتواها الكتاب لم تخط بسهولة ويسر ولم تتناول من قريب ، وانما بذل في سبيلها مابذل واحتمل فيها مـا احتمل واستطاع ان يجرد نفسه من صلات البنوة ونزوات النفس ونزعات الهوى ، وسلك أدق الطرائق العلميـة تحقيقاً لصحة الحوادث وصواب الآراء وسلامة النقل ، «فالترجمة خالية من المبالغة ، بريئة من الغلو سليمة من الشطط » وبذلك وفق الى إرضـاء العلم والتاريخ بعد مرضاة روح والده في العلياء ..

واخرى لابد منهـا وهي هذا الاسلوب المشرق والديباجة الحلوة والتعبير الدقيق واللفظ الجزل والسبك المتـين والبراعة في انتقاء المفردات التي تسر في جرسها الحلو اللسان والسمع معـاً عند المواقف ! واذا كان قد أعلن انه دوجد سبل القول مفتحة وأساليبه متسعة » فانه لم يغادر في ذلك الواقع ولم يفتئت على الحق ولم يتجاوز الصواب .

والذي هو جدير ان نتوقف عنده قليلاً هذا التشابه في اسلوب الوالد والولد.. واذا كان الأقدمون جعلوا الولد سر" أبيه فمن حقنا ان نجعل ذلك يتناول حتى الإنشاء واساليب الكتابة .. ولم يخطيء الأفرنسيون حين قرروا ان الرجل مرآة انشائه . على ان اسلوب الاستاذ الوالد متأثر أبعـد تأثير باسلوب الامام

الشاطبي وكان هذا الامام من أحب العلماء اليه وآثرهم عنده وأعزهم عليه يقتدي به ويهتدي بهديه ، في حين ان والده يحرص على محاكاة الاستاذ احمد أمين وهو من نعلم بسطة علم وأدب وبعد صوت وصيت في التدقيق والتحقيق..

وافتتح المؤلف كتابه عن عصر القاسمي لأن من العسير على القارىء ان يدرك ما كان للأستاذ من أثر في الإصلاح ويد في الفضل وقوة في الرأي ونفاذ في البصيرة وشجاعة في نصرة الحق اذا لم يعرف ما كان يعانيه عصره من جهالة وتخلف وفساد وإرهاب ورعب . فالحالة الدينية قد استبد بأمرها رجال من الطراز الأدنى وطغت عليها بدع كاذبة وضلالات بشعة والناس يحكمون بالبغي والقهر والرعب ويتمنون لو آمنوا من خوف قبل ان يطعموا من جوع !!

واستمع الى المؤلف يدرس عصر والده دراسة مستفيضة والظروف التي عاش فيها : انه يصف هذا كله بقوله : « عاش القاسمي حياته في اشد ايام الظلم والظلام فقد ولد ونظام الحكم المطلق قائم والحريات بجميع أنواعها مفقودة والاقلام مغلولة والعقول مقيدة والصحافة على ضعفها وقلتها مكبلة والأحرار يطاردون والدستور معلق والمجالس النيابية التي تمثل الشعب معطلة والناس يحاسبون على الهمسة والنبسة وأعوان السلطان وزبانيته مبثوثون في كل مكان ، والجاسوسية تفتك بالأبرياء والعدالة تكاد تكون مفقودة لفساد النظام القضائي وانتشار الرشوة بين موظفي السلطة العامة والإمتناع عن كل ما يتصل بالسياسة حتى حرم لفظ الدستور .. »

في هذا الجو الخانق الذي وصفه لنا المؤلف فأحسن وصفه عاش علامة الشام عمره كله .. وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر .. بل لعل هذه الظلمات كانت مذكية لنشاطه ومقوية لرأيه ومؤيدة لدعوته .

وكان رحمه الله من بعد الغور ورجحان العقل ان بدأ رسالته هادياً وسلك اليها طريق النصح والرفض واللين ، فكان كلما لمس أفقاً ضيقاً ارده الى أفق واسع وكلما واجه نزعة جامحة ردها ببراعة الى القصد والاعتدال ، حتى اذا علا شأنه

واتسع امله وانبسط رجاؤه اعلن ثورته على البغي والفساد والتهريج واخذ ينفق علمه الواسع العميق على اصلاح المجتمع المتخلف بتحطيم البدع والضلالات التي ليست من كتاب الله ولا سنة رسوله ، وانما استقرت فيه رواسب للتأويل الخاطىء حينا وللمكر والتزييف الاسرائيليين احيانا .. وصار لزاما عليـــه ان يواجه اصحابها الذين نهضوا دونها وكانوا ذوي جرأة على الحق وتفنيده وافتتان بالباطل وتأييده لايحسنون العلم بالدين ولا الفهم لاغراضه ودقائقه فأخذوا يحاربون الاستاذ الجليل رحمه الله بالكيد الأحمق والمكر السيء . وصار اتباعهم ، وان كانوا غثاء كغثاء السيل ، يسلقونه بالسنة حداد ؛ ومن وراء هؤلاء جميعا ولاة سوء يضيقون بالرأي أي رأي ، ويحاربون الجديد اي جديد ، ويحملون انفسهم ويحملون الناس معهم على الجادة . وما كان لشيخنا ان يغمض ابداعلى قذى وان يحفل بهذا العداء الارعن وما فيه من نكر ، ولم يرهب بغي المستبدين من الحاكمين وانحرافهم عن الطريق ، ولم يلتفت الى اصوات الحاقدين وما يثيرونه من تفرق في الرأي وتقاذف بالكفر ، وانما وجد في هذا كله عاملا جديدا من عوامل اذكاء نشاطه وبعث همته . فمضى هو وبعض صحبه من الأخيار والاعلام - من غير ان يفسد طموحه أثره - في تبليغ الرسالة ونشر الدعوة واحياء السنة وازالة ما علق بها من صدأ او ادران . فكان يعلن ان البدع يجب ان تلغى وان الضلالات يجب ان تمحى ليصبح العالم العربي مجمعاً صحيحاً للقيادة ، وان الدين يجب ان يعود كما بدأ نقيا صافيا كله عدل وكلمة ونور وتوادد وتراحم وانتصار للعقل لينعم المؤمنون بالالفة والامن والخفض والهناء بعد ان مزقت الامة شيعا وانقسمت طرائق وتبددت الوحدة الوطنية . وكان سبيـــله الى ذلك الاستقرار الصحيح وتصوير الحقيقة الواقعة وتفنيد الذين كانوا يخطفون احكامهم خطفا في جهالة جاهلة وحمق احمق : وليس بدعا بعد هـذا ان يهتم هؤلاء الذين كانوا ينقون نقيق الضفادع ويسعون سعي الافاعي بالاجتهاد والوهابية وان يحرّفوا آراءه عن مواضعها وان يقذفوه بالكفر والاباطيل .

ولكن شيخنا كان شديداً قوياً صعب المراس ولو استبيح دمه من اجل رأيه الحر .. فلم يأبــه بهؤلاء وهو يعرف ما كانوا عليـه من منطق غليظ وعقول جافة وجهل بأصول الدين . وهم اضعف من ان يفهموا تجربة الاسلام الحضارية ، وهي التجربة الرائدة للانسانية التى تمثل في جوهرها الحر كل حق وخير وعدل ، وفني في هيكلها العارم الخصب كل عقيدة ونظام ، ولكن تولاها أناس انحرفوا بها عن طريقها الذي اختطه لها رسولها محمد عليه السلام ، وبدلا من ان تملأ دنيا المسلمين بالعلم والتطوير والرقي ملئت تخلفاً ونكراً وبدعاً وتقاليد ليست من اصل الاسلام في شيء ...

وتعداد مزايا الشيخ الامثل لايكاد ينتهي لوقصد الى الاستقصاء ، وحسبي واحدة لاينبغي ان ننساها ، سواء أصر عليها الدارس أم لم يصر ، وسواء أتوقف عندها بما ينبغي ان يتوقف ام لا ، وسواء تنبه اليها من الاهتمام والعناية أم لم يتنبه ، فكلنا يعلم ان العالم في هذا العصر كان احد رجلين : إما انه عالم يعنى اكـــثر ما يعنى بالتعرف على مواطن الضعف ونواحي التقصير في المجتمع الاسلامي الذي يعيشه ليسعى في الاصلاح على بصيرة فيكون صاحب دعوة يقوي حشدها ويبلغ رسالتها وينشر تعاليمها وينفق علمه ونشاطه راضياً مطمئناً في دره الظلم وكف الاذى ونصرة الحق والاستقامة على الطريقة والنصح للدين الخالص لاتؤوده الخطوب اذا اعتورته ولا تتكاءده الصعاب اذا اكتنفته في سبيل تبديد الظلمة وحمل الاعباء الثقال وليصبح المجتمع مصدراً لقوة الاسلام الحق . وإما ان يكون عالماً يؤثر الدرس والتدريس والبحـــث والتنقيب والتدوين والتأليف ، دائم الخوض في صفحـــات الكتب والاستقصاء لآراء اصحابها ، وهو في نشاطه هذا يؤثر العافية ويرجو رحمة ربه لايريد ان يدفعه علمه الى مكروه اويجره الى خطب اوقهـر او عسف ... ولعل خير من يمثل المدرسة الاولى الشيخ محمد عبد الوهاب وجمال الدين الافغاني ومحمد عبده ورشيد رضـا وامثالهم من الدعاة المجددين والمصلحين الخطيرين الذين سموا الى مركز القيادة

واحتلوا مقام الزعامة في سبيل تطهير الارض وتحرير الناس فتدارسوا اسباب تأخر المسلمين وتقدم غيرهم واندفعوا في غرضهم الاصلاحي يلتمسون اللباب ويهدرون القشور ويبعثون الهمم ويذكون النشاط وخمود العزائم وينذرون قومهم اذا رجعوا اليهم ان لامقام للاستكانة والاستسلام والقناعة بالحاضر الميسور في ظل الاسلام الصحيح دين العزة والعدالة والمعرفة والانسانية ..

وأما رجال المدرسة الثانية من العلماء الذين وهبوا انفسهم ووقتهم للنصوص وحدها يخوضون فيها فقهاً وتفسيراً ونقداً وحواراً ولا يكادون يغادرونها لما نسميه في يومنا هذا بالعمل العام لايريدون ان يلقوا خطباً اويتجشموا خطراً .. وخير من يمثل هذا الطراز من العلماء ابن عابدين والزبيدي والشوكاني واحمدابراهيم ابراهيم.

أما استاذنا وشيخنا القاسمي رحمه الله فقد قدر له مالم يقدر لاحد سواه انه جمع الحسنتين وفاز بالمكرمتين وحقق الغرضين الرفيعين فهو من جهة عالم نحرير وكاتب قوي وفقيه راسخ ومفكر صاحب ذهن موسوعي بأوسع معاني هذا الاصطلاح، قد قاربت مؤلفاته المئة ولم يجاوز العقد الخامس من عمره القصير، كتب في التفسير والحديث والتوحيد والعقائد والاصول، وكتب في تاريخ الجهمية والمعتزلة، وعالج الجرح والتعديل ومذاهب الاعراب، ووضع كتباً في الاخلاق، واختصر امهات الكتب كقوت القلوب واحياء علوم الدين وجمع الادعية المأثورة، كتب هذا كله من غير ان يتردى او يسف او يتبذل في واحدة منها وانما واجه الحقائق العلمية على نحو مستقيم من التفكير السليم والرأي الحر والبصيرة النافذة لايلتزم بمذهب ولا يتقيد بمدرسة وانما يجري على مذهب السلف الصالح في بحثه واستقرائه واجتهاده. واعانه على ذلك انه كان واسع العلم، سديد النظر، قوي اللغة، بارع النقد.

وحسبي من تصانيفه الكثيرة ان ارجع بالقارىء الى واحدة منها ليدرك مدى هذه المواهب المتعددة كيف تتجلى اصالتها وطاقاتها بصورة تستدعي كل الدهشة والاعجاب واعني بها كتابه (محاسن التأويل) وهو تفسير لكتاب

الله العظيم ويقع في سبعة عشر مجلدا طبعه البابي الحلبي في القاهرة لاعوام قليلة خلت ومن العسير علي ان اقوم في هذه الدراسة العجلى بتقييم هذا الكنز العظيم، واطمع ان اوفق في القريب العاجل للتوفر على دراسته دراسة مستوفاة . ولكن الشيء الذي لابد لي ان انوه به هو اننا لانجد مثيلا لهذا التفسير في سلامة النهج والوقوف على اسرار الشريعة وغاياتها ودقائقها والحرص على التماس اللباب والعزوف عن البهرج الكاذب مستمدا وثائقه وحججه من نصوص القرآن الكريم ومظان الألسنة الصحيحة وما اطمأن اليه من اقوال الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين على اختلاف مذاهبهم وتباين آرائهم ، فهو ينقل عن المحدثين وقدامى المفسرين نقله عن المعتزلة والزيدية والشيعة والظاهرية وغيرهم لايتحرج في ذلك ولا يتأثم، فالحقيقة ضالته حيث وجدها التقطها ثم اذاعها في الحال بمختلف وسائل الاعلام ، اعلام عصره ، وكان له اعجاب كبير بشيخ الاسلام ابن تيمية وتلميذه الامام ابن القيم الجوزية . ومن عجب ان داره التي انفق عمره فيها تقوم الى جوار مرقدي هذين الفقيهين العالمين ، احدهما عن يمين الدار والثاني عن شمالها، ولا ادري اذا كان لهذا الجوار اثره في النفس والانتاج. وتوفر على الكتب المخطوطة وغير المخطوطة وبذل في دراستها مابذل من جهد وصبر ومعاناة ليظفر منها بما انتهى اليه من استقراء صحيح وتعليل دقيق ورأي أصيل وحكم طريف . وظل على هذه الحال يعمل على اعداد هذا التفسير ستة عشر عاما هي ربيع حياته، ارق فيه ليله وانفق فيه صفوة نهـــاره واحتمل في ذلك الوانا من الجهد والعنف حتى حقق الله رجاءه وقيض له انجازه واخرج لنا تفسيرا ممتعا سيبقى منـــارة وضاءة يهتدي بهديها الدارسون والباحثون ينتفعون به ويستمتعون بروعته ودقته وبيانه وجدته .

الا ان شيخنا العلامة ـ الى جانب ما امتاز به من بحث علمي دقيق، وعمل خصب في التأليف والتدوين ـ كان شهابا ثاقبا وعودا صلباً في معالجة قضايا المجتمع الاسلامي واوضاع الحياة العامة التي كانت تسود اقطاره بما ألقى في قلوب معاصريه من

آراء ثورية جديدة وقيم نافعة مستحدثة لمواجهة ما كان يكابده مجتمعه من عوامل البلى والتفكك والانهيار بعد ان استوخم الامر واستفحل الجهل ، وهو في المعركة لم يحمل الراية وحدها وانما حمل معها المعول ، يدعو حينا ويحطم حينا آخر ، يبغض للناس الضلالات ويزين لهم ماينفعهم في دينهم ودنياهم ويفتح امامهم ابواب الامل ويدفعهم دفعا الى تغيير الاوضاع التي كانوا عليها ويبرىء نفسه منها اقوى التبرئة واعنفها . .

وكان في كفاحه المرير لايحارب في جبهة واحدة ولا جبهتين اثنتين وانما في جبهات متعددة: جبهة الحاكم المستبد الطاغي وجبهة المحكوم الضعيف المستكين ، ثم جبهة الجاهل الارعن وجبهة عالم السوء وجبهة المداجي والمنافق والمتملق . . ولولا الظلام لما ابصر البوم ورفرفت الخفافيش ! ! ولكن الاستاذ الجليل كان يواجه هذه الجبهات كلها ناعضا ماضيا بقهر مايقوم في طريقه من المصاعب والعقبات لايعنيه إلا رضاء الله وراحة الضمير ، اما تنكر المجتمع والتواء الناس فلم يحفل بها ابدا ولم يقم لها حسابا . .

ولما نبه شأنه وطالع الناس تآليفه واستمعوا الى نداءاته اقبل عليه كبار الدعاة وجلة العلماء من مختلف الاقطار ليتعاونوا في التخطيط للاصلاح ولتتساوق سبلهم وجرى التراسل فيما بينهم وكثر اللقاء وكل من قرأ هذه الرسائل التي تبادلها مع أئمة العصر محمد عبده ورشيد رضا وطاهر الجزائري والامير شكيب ارسلان يلمس ما كان يتمتع به عندهم من مهابة وتقدير وحب .

وهذه السوانح التي نقلها الينا المؤلف بامانة لايكاد القارىء يأتي عليها الا ويزداد اعجابا بهذا الفكر الخلاق الممتع . ولنستمع اليه يعقب على قول السادة الفقهاء . . ان هذا الحكم تعبدي وذاك عقلي . . فيقول رحمه الله : **« ان هذا غفلة منهم عن التمعن في سر التشريع وجهل اساوب التنزيل وحجر على العقول والافهام ان تنظر وتتأمل وتفكر وتتدبر وهو تقليد اعمى ينافي قاعدة اعمال الفكر لاستنباط المعاني »** .

ويرى ان « الصلاة الوسطى » هي

توصيف للصلاة بانها فضلى وفي سوق الصفة بهذا الاسلوب من الاعتناء بالموصوف مالايخفى، وهذا الرأي يحاكي ماقرره معاذ ابن جبل من انها الصلوات الخمس .

وانظر اليه يفسر قوله تعالى « وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين » فهو يذهب الى ان المراد بذلك الذين يطيقون صومه فأفطروا مخالفة للأمر وعصياناًلهويعلل قوله هذا الذيلا تشاطره الرأي فيه ، بأنه تعالى اخبر انه كتب علينا الصيام فدل على انه امر مفترض لا ريب فيه ثم رخص لحكمته المريض والمسافر ان يفطرا ويقضيا مافاتهما من ايام أخر رحمة بهما ورفعا للحرج ثم بين حالة من يطيقه فأفطر بلا مرض ولا سفر ولكن تعمدا للاثم بقوله : « وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين » اي وعلى الذين يطيقون صومه اذا افطروا بلاعذر مما ذكر من المرض والسفر كفارة . وذهب بعض الأئمة الى وجوب الكفارة على المفطر عمداً بلا عذر ، هو ظاهر الآية، وبه اقول، الا ان الآيةساكتةعن وجوب القضاء فيحتاج وجوبه مع الكفارة الى نص آخر . ثم مفهوم الآية ان من لا يطيقه مطلقا كالهرم ، اذا افطر ان لافدية عليه ، وهو مذهب مالك كما في رحمة الأمة قال : « لا قضاء ولا كفارة عليه » . وبه اقول ومما يؤيده قوله تعالى بعد : « وان تصوموا خير لكم » فان فيه تنبيه المطيقين ، المفطرين عمداً ، على خطئهم في نبذهم مـــا هو خير لهم وهو الصيام ، بدون جعلها مستأنفة ، لأن سياقها يدل على ربطها بما قبلها ربط الاتمام والا كمال . وبالجملة فاني ارى هذا القول في الآية متيناً جداً وبه تبقى الآية على حكمها واظن ان من دقق فيه لا يؤثر عليـــه غيره . وارى ان من اخبر من الصحابة بأنها مفسوخة بآية : « فمن شهد منكم الشهر فليصمه » مقصوده أن ماتوهم من قوله تعالى : « وعلى الذين يطيقونه » من الترخيص هو منسوخ اي مدفوع بالآية التي بعدها من تعيين الصوم على كل من شهده . هذا معنى مـاروي عنهم . واصطلاح السلف في المنسوخ غيره في اصطلاح اهل الاصول كما اوضحه ابن

القيم في الاعلام والسيوطي في الاتقان نقلا عن المحققين . على انه لو ثبت انهم فهموا الترخيص في الافطار والفدية وافطروا لكان ذلك بمثابة من اجتهد فأخطأ ثم رد الى الصواب فيكون معنى نسخ فعلهم تبين انه خطأ لاينبغي التعويل عليه وان الواجب هو الصوم فحسب ..

وهناك سوانح ممتعة رائعة وكنوز متألقة باهرة في بحثه في سد الذرائع ، واتباع احسن القول ، والمصلحة مقدمة على الدليل ، والآية العقلية والحسية ، ورواية الحديث بالمعنى ، واعمال الفكر ووصيـــة الله في الحقوق ، والحفظ والاستنباط ، والمعتزلة وخلق الأفعال ، والمرأة وحقوقها ، وحقيقـــة الروح ، وشروط الاجتهاد ، والصوفية والفلسفة الاسلامية ، ومايراد من سبيل الله وعدم حصره بالمجاهد ووجوب التوسع في تعميمه ليسهل على الاغنياء دفع اموالهم لكثير من المشروعات المهمة التي تنفع الأمة كشراء كتب لطلبة العلم واصلاح طرق في القرى والمدن واجراء ماتوترميم مدارس واقامة مساجد ، ورأيه في التصوير الشمسي وان المنهي عنه هو التصوير بقصد العبادة فان انتفت فلاوجه للتحريم لأن الأصل في الاسلام ان لاتحريم حيـــث لاضرر ، والتحقيق في مسألة المتعة ومناقشة ماذهب اليه السادة علماء الشيعة والسنة ، والوصية بالوالدين وان هذا لاينافي الميراث .

وفي الفصل الباحث عن آرائه وافكاره احسن المؤلف اذ قرر ان هذا الفصل ليس استقصاء لها انما هو غيض من فيض وشذرات من الاوابد التي قدر له الوقوف عليها خلال قراءته لكتب القاسمي وآثاره ، والى المؤلف ان يقوم باحصاء دقيق لها وقد ترك رحمه الله قرابة مئة مؤلف فيها الكثير من الكنوز المتـــألقة واللآلىء الوهاجة المتأبدة . على انى ارى من المحبب ان اثبت طائفة من ثمرات هذه المعرفة لتظهر القارىء على ما كانت تضطرب به نفسه حين يفكر من آراء لمــّاحة الطرف بعيدة الافق لن يبلغها الا من اوتي مثل ما اوتي من ذكاء الفؤاد واتقاد الذهن وبعد الغور والوعي الحر : تحدث عن الدين في كتابه « دلائل التوحيد » فقال :

« لايصان نظام المجتمع من الخلـــل

والتفرق الا بالدين ، ولايندفع خطو الفوضى التي تهوي بالشعوب من الهلكة الى مكان سحيق الا بالايمان الصحيح ، فبقدر تمكن العقيدة من نفوس افراد الأمة يكون نهجهم وقوام حياتهم .. والله لم يشرع الدين ليتفرق فيه ولكن ليهدي الى اتفاق العمل .. وان من محاسن دين الاسلام انطباق اصوله على نواميس العمران ، ووفاء مبادئه بحاجيات كل زمان ومكان ، وابتناء قواعده على جلب المصالح ودرء المفاسد ، وتميزه برفع الاغلال والقيود وفتحه ابواب اليسر والتيسير وسده مسالك الحرج والتعسير » . وكان رحمه الله يمجد العقل ويرى فيه : « حجة الله القاطعة البالغة وان النقل لايأتي بما يناقضه ، وان جميع الاحكام المشروعة ، اصولها وفروعها معقولة المعنى » . اما الذين لايرقون لذلك فعذرهم : « ان الذنب للعين العشواء في محبة الظلماء وكراهة النور ، وفم المريض يستمر طعم الماء ومن حارب جيش العقل وخلع ربقة العدل فقد كفى خصومه مؤنة عتابه وعقابه .. واتفق العلماء على انه اذا تعارض العقل والنقل اول النقل بالعقل . اذ لايمكن حينئذ الحكم بثبوت مقتضى كل منهما لما يلزم عنه من اجتماع النقيضين ، لكن بقي ان يقدم النقل على العقل ، والعقل على النقل ، والاول باطل لانه ابطال للاصل بالفرع » .

ويبدع رحمه الله اذ يتحدث عن الحرية والاجتهاد فيقول : « ان باب الحوار مفتوح حتى في مثل اخبار الصحيحين وهي ماهي ، وان غل الفكر عن النظر والتأمل هو اعظم هادم لصرح التحقيق فان الحقيقة بنت البحث » ..

« وحرية العلم والتأليف تقضي ان لايبخل بفكر ولايضن برأي ، ومن عقل المؤلف ان يفسح المجال للبحث ويشرح صدره للحوار والنقد والحق في المسائل ليس منحصراً في قول ولا مذهب مادامت اجتهادية لم يرد فيها نصوص قطعية وقد اختلفت فيها الأئمة قديماً وحديثاً ، وقد يظن البعض ان مراد دعاة الاصلاح العلمي بالاجتهاد

هو اعداد مذهب جديد والدعوى على انفراده ، وأي عاقل يدعو لتكثير الشيع والفرق وزيادة الانقسام . وانما المراد انهاض همم العلماء لتعرف المسائل بأدلتها والبحث عن مداركها ومآخذها والتنقيب في الاصول والفروع وتعرف طرق التخريج والاستنباط وحجج الموافق والمخالف ثم توخي الاقوى دليلا والاقوم قيلا » .. ثم ينتقل رحمه الله الى المذاهب والفروق ووجوب احترام آرائها فيقول : لو كانت الفرق التي رميت بالابتداع تهجر لمذاهبها وتعادي لأجلها لماخرج البخاري ومسلم وامثالها لامثالهم . ان هؤلاء المبدعين لم يكونوا معصومين عن الخطأ حتى يعدوهم الانتقاد . ولكن لايستطيع احد ان يقول انهم تعمدوا الانحراف عن الحق ومكافحة الصواب عن سوء نية وانما غاية مايقال انهم اجتهدوا فيه فأخطؤوا.. ويتحدث رحمه الله عن بعض هذه الفرق ويخص منها المعتزلة فيقول : « ربما يظن قليل الاطلاع ان المعتزلة وان شئت فقل القدرية فئة لايؤبه لهم لانهم في نظر الاعشى كالمارقة ولكن ماذا يكون جوابه اذا تلونا عليه اسماء القدرية من السلف على مارواه الامام ابن قتيبة في المعارف ومن اخرج لهم الشيخان البخاري ومسلم» .. أما الفرق المغالية فتحدث عنها بمايلي: «من المعروف في سنن الاجتماع ان كل طائفة قوي شأنها و كثر سوادها لابد ان يوجد فيها الأصلي والدخيل والمعتدل والمتطرف المغالي والمتسامح. وقد وجد بالاستقراء ان صوت المغالي اقوى صدى واكثر استجابة ، لأن التوسط منزلته الاعتدال ومن يحرص عليه قليل في كل عصر ومصر ، واما الغلو فمشرب الاكثر وعليه درجت الطوائف والنحل فحاولت التفرد بالدعوى ولم تجد سبيلا لاستتباع الناس لها الا الغلو بنفسها وذلك بالحط من غيرها والايقاع بسواها بالسنان او اللسان . والتفكير ليس بالأمر اليسير وكل مالم يكن قاطعاً في بابه بآية محكمة او خبر متواتر او اجماع من الفروع النظرية او المسائل الاجتهادية المدونة فمخالفتها الى قانون

عادل لايعد ضلالا ولا كفراً » .

وفي تعريفه للعربي قال رحمه الله في معرض تفسيره للآية الكريمة : (وآخرين منهم لما يلحقوا بهم) . . « **قال بعض المحققين في الآية معجزة من معجزات النبوة ، وذلك لأخبار عن غيب وقع والبشارة بدخول امم غير العرب في الاسلام قد حصل ، فقد صارت تلك الامم التي اسلمت من العرب لأن بلادهم صارت بلاد العرب ولغتهم لغة العرب وكذلك دينهم وعاداتهم حتى اصبحوا من العرب جنساً وديناً ولغة وحتى صار لفظ العرب يطلق على كل المسلمين من جميع الاجناس لأنهم امة واحدة . . وان هذه امتكم امة واحدة** » .

وهكذا يشهد القارىء مدى ماتضمنته هذه الآراء من جدة وتحرر وانطلاق وانها كانت في زمنها كمثل الصواريخ تنهال حممها وقذائفها على معاقل البلى وحصون التأخر والانحطاط فتدكها دكا وتتركها قاعا صفصفا لاترى فيها عوجا ولا امتا . .

احس الشعب الذي طال تربصه وبلاؤه ، بما فعلت فيه هذه التقاليد الضالة والمفاهيم المغلوطة للحقائق والادراك العقيم لجوهر الاسلام الحر وماأورثت له من فتن وقلق وتخلف . . فأقبلوا على الشيخ ينصرون دعوته ويعززون رسالته .

وقد اكون فيما قدمت قد اطلت واسرفت في الاطالة ولكن الموضوع خطير ولايمكن ان تخطف دراسته خطفا والا جاءت بلا نفع ولا غناء .

وقصارى القول ان هذا الكتاب من امتع الكتب التي ظفرت بها المكتبة العربية ولعله الكتاب الظافر من كتب الاستاذ الظافر على وفرتها وجودتها ، انه يصور لونا اصيلا من ثقافة هذا العصر ويرسم لنا اوضاع المجتمع بدقة وعناية ويقدم للجيل الناشىء عملاقاً في العلم والعمل علّه يتخذ من حياته الحافلة درساً يستفيده وعبرة يعتبرها اذا قدر له ان يتوفر على دراسة هذه الكنوز الفنية التي خلفها في البحث حينا وهو يطمع اليوم ان يرتاد طريق الحضارة والمدنية وحسب المؤلف ان تباهى به روح والده في جنة الخلد ببره ووفائه وجهده وخليق به ان يتلو قوله تعالى : (وكان ابوهما صالحاً فاراد ربك ان يبلغا اشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك) .

مع الروائي الإيطالي ألبرتو مورافيا

Alberto Moravia

من الدكتور جون فياني

ترجمها عن الانكليزية جنين حاصباني



Alberto Moravia

لقد اختلف النقاد فيا كتبه البرتو مورافيا من الروايات والاقاصيص ولا سيا رواية (امرأة من روما) ورواية (الملل والسأم) فأطرى بعضهم مافي اسلوب هذا الأديب من سهولة ويسر ، وقرب تناول ، وبساطة ، وبراعة لا تدانى في السرد والحكاية . بينا أخذ عليه آخرون أن ادبه انما هو أدب تمركز بشدة حول فكرة واحدة ، وانه غير مبال بالأخلاق اطلاقاً .

ومها يكن من امر النقد والنقاد فلا ريب فيه أن مورافيا هو الأديب الذي يقبل الناس على مطالعة آثاره أكثر من اقبالهم على سواها ، وذلك في ايطاليا كلها أما اذا خرجنا الى المحيط العالمي ، فنحن واجــدون ان مورافيا ، وهمنغواي ، وسمرست موم ، ثلاثة مجلون سابقون ، وانهم اشهر كتاب العالم وأكثرهم نجاحاً ، وأحبهم الى قلوب القراء في العديد من أقطار الدنيا ..

. . .

وقد قمت بزيارة البرتو مورافيا ، بعد ظهر أحد الأيام . وكانت قد انقضت بضعة أسابيع على عودته من كوبا . فظفرت منه بحديث ممتع ذي شجون ، ونحن جالسان حول اكواب الشاي الطيب .

ومنزله في شارع فيتوريا ، المحاذي لكثبان نهر التيبر الشهير . وهو موقع ممتاز في رأي رجل مثل مورافيا يعني اشد العناية بالجانب اللامع المتألق من المجتمع في روما ، كما يعنيه ان يتتبع بالحس الرهيف والملاحظة الدقيقة الرقيقة كل ما يظفر به من مظاهر الحنان والعاطفة والحب في عصر العلم والذرة ، وكل ما يتبين له من اختلاف أمزجة الناس باختلاف النهار والليل عليهم ، وكل مظهر من مظاهر الحياة التي تبدو اشبه بحبوب القمح التي تغذي (طاحونة) الأدب المورافي .

. . .

وكما يفعل الصحفي البارع الطويل الباع ، بدأني مورافيا بالسؤال قبل أن أسأله أنا وهو ، دون ريب ، رجل رحالة كثير الأسفار ، ذراع لفضاء الله الواسع ، عليم بالناس والبلدان ومرد ذلك الى انه ذو صلة وثيقة بواحدة من كبريات الصحف في ايطاليا وهي (كوريري دلا سيرا) التي تصدر في مدينة ميلانو ..

وكان من الطبيعي بالنسبة لمورافيا كصحفي ان يرغب في ان يتلقف آخر الانباء ويستطلع أحدث الانباء وان يظن" في نفعاً له في ذلك كله لأنه علم اني مثله امرؤ رحالة كثير النقالة والسفر ، لا يستقر لي في مكان قرار .

واكثر ما كان يتشوف الى معرفته ، وينصرف اليه اهتمامه ، هو التطورات الأخيرة في العالم العربي . فهو عالم يعرفه عن قريب ، وقد زاره كله باستثناء ثلاثة اقطار منه ينوي زيارتها متى سنحت له الفرصة المؤاتية .

وسألني عن الوضع في عدن وسائر الجنوب العربي ، وعن الدستور الذي يقال انه سيكون اكثر ملاءمــة لتلك البلاد ..! وتوالت علي اسئلته : هل انا شيوعي ؟ هل سيغادر البريطــانيون عدن حقيقة ؟ هل توقف القتال في اليمن ؟ ما الذي آلت اليه نتائج اتفاقية جدة بين الملك فيصل والرئيس عبد الناصر ؟

وقد بدا لي مهتما اهتماما صادقا ومخلصاً بخير الشعب العربي ، وقد أعرب عن امله في الأ تطول وقت قبل ان يصل الشعب العربي الى تحقيق غاياته واهدافه .

. . .

على اني لم آت الرجل لاكون في موضع المسؤول ويكون هو في موضع السائل لذلك كنت اتطلع الى تغيير وجهة الحديث . وقد سنحت الفرصة لذلك عندما غادر مورافيا الغرفة ليعود حاملا بعض الشاي وشيئاً من الحلوى فبادرت الى توجيه الكلام وجهة حياته وأدبه وهما أمران هامان بحد ذاتها .

وهكذا دار بيننا الحديث التالي :

س — هلا ذكرت لي كيف اصبحت كاتباً ، وماذا فعلت في سبيل ذلك ؟

ج — الحقيقة هي أني لا أعرف ما فعلت .. على أني بدأت الكتابة وانا لم اجاوز التاسعة من عمري . فمابلغت السابعة عشرة حتى كان لي كتاب منشور . وهو « زمن اللامبالاة » .

س — وماهي أهم نواحي دراستك؟

ج — انا لم ادخل المدرسة قط وقد حال بيني وبينها اعتلال صحتي وملازمتي فراش المرض في الفترة الواقعة بين التاسعة والسادسة عشرة من عمري فقد كنت مصابا بداء شديد الوطأة حل بعظام ساقي (ونشير بهذه المناسبة ان مورافيا أعرج يظلع في مشيته) فلما انست بعض التحسن انطلقت اسافر من بلد الى بلد . فأنا امرؤ مغرم بالاسفار والرحلات .

س — وأين ذهبت ؟

ج — لما كنت في السابعة والعشرين زرت بلاد الصين . وزرت عدداً كبيراً من اقطار الدنيا ، قبل ذلك ، كبريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة وغيرها . ثم عملت مراسلا صحفياً في تلك البلاد وفي الامير كتين ، وفي الشرق الأقصى ، والهند والاتحاد السوفياتي ، وشمال افريقيا ، واليابان ، والصين واوروبا الشرقية والغربية ، والمكسيك ، والبلاد العربية عدا العراق والجزائر والخليج . وها أنا قد أبت من كوبا التي زرتها بدعوة من فيدل كاسترو .

س — واذن . فقد جبت الارض وزرت الاقطار الكثيرة . ولقد تفوقت علي في هذا المضمار ، وكثرة الاسفار .

ج – أجل. فأنا مسافر دائماً. ما أبت من سفر الا ازمعت سفراً اذا تيسر لي.. على أني لم ازر حتى الآن جنوب افريقيا ولا استراليا ولا نيوزلندا .

س – هـــل يكون سبب ذلك وجود قضية الملونين في هذه البلدان ، او ما فيهـــا من قوانين مزعجة فيما يتعلق بالدخول او الهجرة اليها ؟

ح – كلا.. جماع الأمر ان الفرصة لم تسنح لي بعد لزيارتها .

س – وما هي الاماكن الـــتي أحببتها اكثر مما احببت سواها ؟

ج – من الصعب الاجابة على سؤالك ولعلي اخص بإيثاري مدينة تدمر في سورية . فهي بلد رائع الجمال . وقد زرتها عام ١٩٥٢ . وقد طوفت في ذلك القطر بالسيارة . ثم ركبت الطائرة من دمشق الى حلب .. وهي رحلة تترك في النفس انطباعاً جميلاً واثراً قوياً . . وأظن ان حلب هي البلد العربي الأوفر حظاً من حيث صيانته والحفاظ على آثاره . وقد أثارت اهتمامي كثيرا قلعة الحصن في الطريق الى حلب .

(ولما كنت شخصياً لا اعرف شيئاً عن هذه القلعة ، فقد حاول مورافيا ان يعطيني معلومات عنها ، راوياً لي تاريخها) .

ثم قال مورافيا :

ولشدما احب ان أعاود زيارة سورية ولا سيما تدمر وحلب .

واستطرد يقول :

أما الهند فقد اخذ سحرها بمجامع قلبي .. فزرتها ثلاث مرات . ومثلها نيبال وهي بلاد بوذا .. اما الذي احبه في الهند فهو شعبها وثقافته ، وطريقته في المعيشة .. والهند، في الحقيقة، هي موطن الثقافات ومهد الحضارات .

كذلك احب مدينة بعلبك وآثارها التي تحاط بالعناية الفائقة للحفاظ عليها وصيانتها . وانا مشوق جداً لزيارة العراق لأني لم ازرها حتى الآن . بيد أني آمل ان يتاح لي السفر اليها لأني رجل كلف بالآثار مولع بامور الحفريات .

أما صنعاء فكانت في نظري مدينة ذات سحر خاص ، فقد زرتها عام ١٩٦٢ وأقمت فيها اسبوعاً كاملاً ، ولقيت فيها صديقاً قديماً كنت قد عرفته في ميلانو .

وأما تعز والحديدة فلست أحفل بهما كثيراً .

واقمت اياماً في كابول بأفغانستان . والقيت في جامعتها بعض المحاضرات في موضوع (فن القصة) . واهلها شعب ذكي جداً لكنه فقير جداً . اما في بلادهم فرائعة الجمال حقا .

. . .

. . .

بعد ان أصدر مورافيا كتابه الاول : « عصر اللامبالاة » اخذت مواهبه كقصاص وروائي تبدو عليها آثار التوفيق والتدقيق والصقل ، ويرجع الفضل في ذلك الى ازدياد خبرته ومعاناته. كما يتجلى في مؤلفاته الاخيرة :

ففي روايته (امرأة من روما) التي تجري حوادثها زمن الحكم الفاشستي، رسم مورافيا، بريشة الفنان المقتدر، صورة رائعة لامرأة ذات شخصية ساحرة ، فاتنة تأخذ باللب ، وباسلة لاتعرف الخوف والمداراة ، هي أدريانا ، المرأة الرومانية . . وهي ، وان استسلمت لاغراء سائق سيارة او ضابط كبير في البوليس ، لاتنفك محتفظة بطبيعتها الخاصة المتميزة بالشجاعة والانفة والشعور بالكرامة .

ولقد لقيت هذه الرواية حظوة كبيرة لدى القراء في انحاء العالم. وقد كشف فيها مورافيا عن موهبة خارقة كقصاص وراوية ، تكمن كلها في مقدرته على ان يصور بدقة وتفصيل حياة الطبقة البورجوازية في روما. وهي الطبقة الاجتماعية التي ينتمي اليها هو نفسه . ولكنه لايوليها حباً ولا وداداً او عطفا .

. . .

وأما روايته « حب زوجي » فقد استطاع هذا الاديب الكبير ان يجعلها قصة كثيرة الامتاع شديدة التشويق ، وان تكن ، بحد ذاتها قصة غريبة تخرج عن المألوف وتتنكب الجدد المطروق. وهي تدور حول « سيلفيو » وهو رجل من اثرياء ايطاليا ، مثقف ، بل متحذلق ، كما تدور حول زوجته (ليدا) وهي امرأة ذات مرح نفسي وروحي غير طبيعي . وقد اتفق الزوجان على مجانبة العلاقة الزوجية والانقطاع عن المعاشرة الجنسية بينهما . لكي يستطيع الرجل الانصراف بكامل قواه، ومخزون طاقته، الى كتابة قصة بارعة ناجحة. الا ان رجلا آخر ينزل الى الساحة . وهو الحلاق (المزين) انطونيو . وهو رجل أشر ، فوار النزوة ، متين الجسم ، شبق عرم ، على قباحة في الملامح وجهامة في التقاطيع.. فدأب على مغازلة ليدا وعلى جرها الى الغواية وهي امرأة محرومة جائعة ، وانثى متعطشة . فأفسد ما كان بين الزوجين من اتفاق ، وملأ جوهما بالمشاحنات والمنازعات، وبصغائر الغيرة وحقاراتها، وغير ذلك من المناوشات المألوفة في دنيا الجنس وعالم الشهوات .

. . .

وقد انحى فريق من النقاد باللائمة على مورافيا. ووصفوا قصصه بأنها هوس جنسي، ووسوسة شهوانية، وانها تتجاهل الاخلاق ولاتقيم لها وزنا.، وسبب ذلك ان مورافيا يركز اهتمامه على الحياة الجنسية للشخصيات التي يرسمها، وهو يفعل ذلك بكثير من عدم المبالاة وعدم التحفظ والاحتراس. فلا يبالي مطلقاً بالنواهي والاوامر الاخلاقية، فكأنها غير موجودة في نظره.

بل ان جماعة من اهل النقد قد ذهبوا الى أبعد من ذلك. فقالوا ان هذه البرودة وهذه اللامبالاة اللتين تثيران الاستهجان بله الاستغراب، ليستا، كما يزعم هو، امتناعاً منه عن الاخذ بأية قاعدة اخلاقية تواضع عليها الناس، بل هما وسيلة يلجأ اليها لصرف النظر عما قد يقع فيه من ضعف في حبكة القصة ولستر ما قد يكون من عيب في صوغ الحكاية وخطتها. وانه اذا صح ان تحليلاته النفسية هي، في الاجمال، مقنعة وافية، فلا بد من القول ان ذلك التوفيق في التحليلات مقصور على قضايا ومواقف معينة.

• • •

وفي (قصص من روما) تجلى مورافيا سيداً لفن القصة القصيرة. وفي سواها من القصص يبدو كاتباً عظيماً واسع الملاحظة، غني المعرفة، لكن اكبر نجاح لقيه كتاب له هو النجاح الذي اصابته رواية (الصورة الفارغة) او (السأم). وهي رواية بارعة جداً نالت عن جدارة اعجاباً عالمياً وتقديراً عاماً للاسلوب الرائع الذي صور به - تصويراً دقيقاً وتحليلياً - عواطف الغيرة والحب والحياة الجنسية والصلات الشهوانية، والرغبة والامتلاك.

و (السأم) هي قصة المصور (دينو)، وهي الشخصية الرئيسية فيها، ومحاولته امتلاك سيسيليا. وهي شابة حسناء تعمل نموذجاً (موديلاً) للرسامين. وقد عالج المؤلف عاطفة الغيرة في دينو وبلغ في ذلك ذروة الوصف والتحليل، وبصورة خاصة في تصوير انفعالاته وهو يحاول تحطيم ماتبديه سيسيليا من مقاومة لرغباته، بينما تنهش قلبه الغيرة وتتأكل نفسه كالسم القاتل.

• • •

ولنعد الآن الى المقابلة التي اجريتها مع مورافيا... سألته **لماذا يكتب دائماً بصيغة المتكلم، ولماذا يختار دائماً روما** مسرحاً لقصصه فأجاب:

فأما اني اكتب بصيغة المتكلم وضميره، فمرده الى اني اجد من الملائم لي والأيسر علي سوق القصة على لسان المتكلم، وفي رأيي ان ذلك، من الناحية الفنية القصصية، اكثر وقعاً في النفس وابعد أثراً فيها، لا سيما إذا كان بطل الرواية نفسه هو الذي يحكيها للقراء، ويروي لهم قصته الشخصية.

وأما إيثاري روما مسرحاً لرواياتي

فلا بد أنه راجع الى كوني شخصاً من اهل روما وسكانها ، واعرف هذه المدينة أكثر مما أعرف أية مدينة سواها .

س – ما عدد مؤلفاتك التي نشرت حتى الآن ؟

ج – يقارب عددها العشرين وقد صدرت بين سنة ١٩٢٩ وسنة ١٩٦٥ . نصفها من قصار الأقاصيص ونصفها من الروايات العادية . وكان آخر ما صدر لي (الكذبة) ، وقدطبع عام ١٩٦٥ .

س – اليس صحيحاً أن بعض رواياتك قد اخرجت افلاماً سينمائية ؟

ج – بلى . ذلك صحيح وقد بلغ عدد ما أخرج منها للسينما عشر روايات . وآخرها رواية (السأم) التي قامت بدور البطولة النسائية فيها الممثلة كاترين سباك في شخصية سيسيليا .

س – هل يمكن ان تذكر شيئاً عما او عمن أثر في مجرى حياتك وعمن تؤثر انت من اهل الأدب ؟

ج – عندما كنت في العشرين من عمري أولعت ولعاً شديداً بالروائي العظيم دوستوفسكي وبالشاعر الكبير رمبو . أما الآن فقد تغير ذوقي . وصرت أوثر همنغواي وعدداً من الكتاب المعاصرين .

س – هل تقرأ بلغاتهم الأصلية ، فأنا أعرف أنك تتقن كلاً من الانكليزية والفرنسية والالمانية ، الى جانب الايطالية طبعاً ؟

ج – أجل .. بصورة عامة ، أقرأ الكتب بلغتها الأصلية .

س – هل تنتمي الى حزب سياسي معين ؟

ج – كلا .. لست انتمي الى أي منها . واذا شئت الصراحة قلت أني لا اعتقد ان الفنان يجب ان ينضم الى حزب معين مهما يكن .

س – هل تكتب الآن شيئاً ؟

ج – اكتب مسرحية ؛ وستكون ثالث مسرحية لي .

س – وماذا ستدعوها ؟

ج – سأجعل عنوانها « العالم هو ما هو » .

س – أمهزلة هي ؟

ج – هي كذلك .

س – ومتى ستنشر على الناس ؟

ج – لن يكون ذلك قبل صيف هذا العام .

س – بصورة عامة ، كيف تكتب؟ هل تفكر اولاً بالموضوع وتضع له مخططاً ، ثم تنطلق في الكتابة .. ام ماذا ؟

ج – انا لا افكر بأي موضوع مطلقاً . ما اعمله هو ، بكل بساطة ، اني اشرع في الكتابة دون ان يكون في مخيلتي اية فكرة عما سأكتب .

س – ايمكن ان يكون ذلك هو الواقع ؟

ج – بالتأكيد انه كذلك . فالكتابة هي ، اذا جاز القول ، نوع من أنواع التصرف والسلوك ، او جزء من اجزاء الشخصية . ولقد بلغ من تمرسي بها ان الأفكار تنثال علي وان قلمي يستجيب بصورة آلية تقريباً .

س – ومتى تكتب ؟ اقصد في أي فترات اليوم تكتب ؟

ج – في الصباح الباكر اذ يكون فكري مرتاحاً طلقاً نشيطاً .

س – ثم انك تعمل في الصحافة ايضاً . فعم تكتب للصحف الايطالية؟

ج – اكتب لها عن المظاهر الثقافية والتاريخية والفنية والاجتماعية في بلد ما . واجتهد في أن اكون عند القارىء فكرة واضحة عنه . ولقد كتبت خمسة مقالات عن كوبا اذ اقمت فيها اسبوعين . و كتبت عدة مقالات عن اليمن وسورية والمغرب والجمهورية العربية المتحدة ، وكل ذلك في صحيفة (كوريري ديلاسيرا) .. وما اكسب من المال أجراً عن هذه المقالات يسعفني في تغطية نفقاتي .. وقد يحدث لي أن اكتب في الشؤون الاقتصادية ، فأنا في ذلك الموضوع عليم خبير ؟!

. . .

ثم حولت الحديث الى حياة مورافيا الخاصة. **فوجهت اليه بضعة أسئلة عن امرأته واولاده . فقال :**

لم ارزق باولاد . وانما اعيش هنا مع زوجي فقط . وهي داشيا ماريني .. وهي تعاني الادب مثلي ، وقد ألفت روايتين هما « عصر البرم » و « فراغ » .

. . .

هذا ماقاله الاديب الايطالي. ولكني سمعت قبل ذلك أن زوجه الشرعية هي السيدة إلسا مورانتي .. وهي كاتبة ادبية يطري النقاد آثارها ويتمدحونها . وقد نال احد كتبها (جزيرة الفن) تقديراً دولياً في اكثر انحاء العالم .

وبما ان الطلاق غير مباح في إيطاليا، فلابد ان يكون مورافيا وزوجته الشرعية، إلسا، قد اتفقا على الهجر وتفارقا دون طلاق. أما السيدة داشيا التي ذكر مورافيا انها زوجته فلا بد ان تكون بالنسبة اليه في نفس المقام الذي لسيمون دي بوفوار بالنسبة الى جان بول سارتر .

على اني ، بالطبع ، لم اكثر الخوض في هذا الموضوع مع مضيفي .

ثم زرت معالم بيته . ورأيت ماجمع فيه من آثار فنية . وغادرته بعد ذلك شاكراً .

ونزلت الى الشارع، شارع فيتوريا الكبير المحاذي لكثبان التيبر، ورحت اجتازه مشياً وئيداً لاستكمل ، مما ارى فيه ، ما كنت قد حصلت عليه من معلومات عن الحياة النسائية، عالم مورافيا الادبي .



بدر الدين الحامد

في مهرجان ذكراه



شاعر العاصي
في حفلة تأبين
المرحوم
سامي السراج

في حفل اقامته وزارة الثقافة والارشاد القومي ، في الشهر الماضي ، اشتركت مدينة حماه في احياء ذكرى شاعرها المبدع ، وخطيبها البليغ ، وابن نضالها الجريء المرحوم بدر الدين الحامد .

والمرحوم الحامد ، انما يمثل بشعره ، واخلاقه ، وحماسه ، واسلوب حياته العاطفية ، مدرسة كاملة لجيل من الشعراء وهبوا مواهبهم لوطنهم ، وخصوا فيهم بنضالهم ، فكانوا الصورة الحية لضمير الشعب في حومة الكفاح من اجل الحق والحرية والعمل القومي .

كذلك يمثل المرحوم الحامد ، في نظم الشعر ، مدرسة الاداء الفحولي ، والجرس الرنان « والوجدانية الرقيقة التي تعانق فيها شخصية الوطن ، شخصية الشاعر ، فاذ بالقضية الوطنية ، قضيــة الهوى ، والوجد ، والحمية ، واذ بالشاعر اكثر من قائل كلام ، ومدبج اوزان ، في اندماجه مع مسؤولية المواطن ، وحماسة القائد .

اطل شاعرنا على المنابر الوطنية في حماه ، فعرفته ساحات الشعب ، كما عرفته مجالس الادباء والشعراء في المدينة المجاهدة فهو بين مجالس الاخوان ، ومنابر الوطنية ، انسان يعيش ادبه بكل صدق ، وعفوية ، وصفاء ، فأنست به المجالس ، واهتزت له المنابر .

وعندما تدفق الشاعر الشاب من حماه الى دمشق ، ليشارك فحولها في مهرجانات الشعر الوطني ، في المناسبات والاعياد القومية ، كان نجمه الشاعر قد بلغ قمة مجده ، وكانت المنابر التي يتبارى عليها فحول الشعر ، بحاجة الى سماع هــذا الصوت الممتلىء القوي ، يتدفق من على المنبر نحو الجمهور الحابس انفاسه ، وقد تمثلت في وقفة الشاعر ذي القامة الطويلة ، وفي سمرة وجهه ونبل قسماته وحركاته ، صورة محببة للمواطن الحموي ، ابن مدينة الجهاد والاريحية .

ومن رقيق القول في حفل رثائـه ، ما قاله صديقه وابن مدينته الأديب الشاعر الاستاذ محيي الدين الدرويش من قصيدة طويلة .

تكلمي يا جواحي واهدوي فهنا
مع النواعير كان الشعر والأدب

هنا درجنا ، هنا رقت مطامحنا
كان جمراً على الأحداث يلتهب
على اناملنا للحب ملحمة
ومن سواعدنا للمجد مرتقب
اذا العروبة نادت: من فتى ؟ وثبت
مواكب ، فاذا ماطولبوا وهبوا
أين الجميع ؟ ألا صوت ؟ ألا نغم ؟
تبكي الدروب أسى فالذاهب الذهب
اذا خلا المرء من خل يصادقه
فليس ثمة الا الهم والوصب
على الاحبة يبكي القلب مغترباً
هم لداتي ، وهم في الحادث النجب
صحبتكم والأسى في الصدر محتكم
وغادروا والاسى في الصدر مكتئب
كأنني ، بعدهم لحم على وضم
الا الاسى ، فهو حي ، والمدى التعب
سألت عنهم فقال الدرب : قد رحلوا
وأومأ القبر هزءاً : فاتك الطلب
ماذا أكفكف ؟ ما دمعي بمنسجم
ولا فؤادي .. فليت العمر ينقضب

وقد حيى الاستاذ جميل شيا وزير الثقافة والسياحة والارشاد القومي ، مهرجان ذكرى الفقيد بالبرقية التالية :

أبعث باسمي واسم وزارة الثقافة والارشاد القومي بتحية حارة الى روح الفقيد شاعر العاصي المرحوم بدر الدين الحامد الذي غنى العروبة في شعره واشاد بالوطن في قريضه واشكر جميع الذين شاركوا في ذكرى الشاعر الكبير وابتهل الى المولى ان يغمر الفقيد برحمته وان يديم ابناء مدينة ابي الفداء ذخراً للعروبة .

مع مخطوطة شاعر العراق

الأخرس

حللها وعلق عليها الأب يوسف سعيد
— بغداد

لكي نفهم جيداً فحوى هذه المخطوطة [١] — التي اقدم على نشرها الاستاذ الدكتور يوسف عز الدين [٢] — علينا اذن ان نطرق الابواب المدرجة ونحن نقدم على تحليل هذه القصائد :

١ — اسلوب الشعر آنذاك .
٢ — رسالة في شعر .
٣ — الاخرس بين النظم والوحي .
٤ — رأي الاستاذ حافظ جميل في شعر الأخرس .
٥ — نماذج من شعر الاخرس .
٦ — المخطوطة التي نحن بصددها .

---

(١) من منشورات دار البصري ، طبعت بمطبعة العاني ١٩٦٣ م .

(٢) عدد قصائد المدح في هذه المخطوطة ثلاث عشرة قصيدة . وعدد قصائد الرثاء قصيدة واحدة ص ٢٤ الى ٢٦ وكذلك عدد قصائد الذم والهجو اثنتان ص ٤٧ و ص ٥١ وهناك قصيدة واحدة بعنوان « جواب رسالة » .

٧ ـ الخاتمة .

ولابد لنا من العودة الى دراسة تحليلية وافية عن هذه المواضيع. فنقول: في العصرين الاموي والعباسي ، دنيا من الشعر والشعراء ، خلت انديتهم من المسارح العامة وبقيت قصائدهم ، محررة على الورق .

ترى أين كانت تلقى تلك القصائد ؟

وأين مكان الشاعر ليصدح بها ؟

لم تجد طغمة الشعراء مجالاً لها الا في اندية الخلفاء والرؤساء والأئمة ، فكانت تلقى هناك مطارحاتهم الشعرية ، وفيها من المدح والاطناب والمبالغة ، والذم في وجه من يقاوم مادحيهم . ومن يدري فلعل الاطناب في نظرنا كان اعتيادياً في نظر تلك العصور المنصرمة ... كما نجد ذلك في شعر المتنبي واضرابه من فحول شعراء العرب . وبقي حالهم هكذا حتى أيام شوقي ، الذي وقف على رتاج قصر الخديوي وغيره في مصر، وهكذا دواليك مع شاعرنا الاخرس الذي نحن بصدده.

وقد وجدنا في قصائده العصماء ، التي القاها أمام شخصيات عراقية مرموقة مكانتها آنذاك، وعريقة في حسبها ونسبها . كما انني اجد في هذه الاسر ، مجالاً واسعاً لمؤرخينا للبحث عن تاريخ هذه الاسر لاظهار وجه العراق في فترة خاصة معينة[1] وبذلك يسدون خدمة فائقة لتاريخ العراق، كما نجد في مقدمة كتاب الديارات للشابشتي[2] وفيه نداء من صاحب المقدمة يحث الشعراء على تتمة هذه القصائد التي وردت في كتاب الديارات، وانا بدوري احد النداء .

فالظروف ـ اذن ـ هي التي تتحكم في كل فترة من فترات التاريخ ، وعلى الادباء والشعراء، ان يراعوا تلك الظروف الحتمية .

من اين يعيش هذا الشاعر الذي يقف امام سلاطين عصره ! ؟ لاشك انه يجب

(١) المخطوطة ص ٢٧ وفيها نجد حاشية كتبها المرحوم يعقوب سركيس في حق فهد المجيد السعدون آخر مشائخ المنتفك قصيدة (٣) .

(٢) نوه بذلك الاستاذ كوركيس عواد في مقدمة كتاب الديارات للشابشتي وقد حققه الاستاذ عواد عام ١٩٥١ .

ان يراعي الشاعر اولئك الذين تربعوا على عرش الزمن، والموهبة الشعرية هي بمثابة العمل، والتضحية، والاجتهاد. وهذه الامور مجهود فكري لا عملي، لان الفكر يصطاد من قلب الخيال افكاراً سامية تلقى امام تلك العروش.

هذا اذا علمنا ان الاندية والمسارح معدومـــة اللهم الا سوق عكاظ الذي ورد في التاريخ العربي [1].

رسالة في شعر : كان الاخرس شاعر العراق في القرن التاسع، بلا منازع، وقد حمل اعباء الشعر طيلة حياته، ولا بد لنا ان نشير الى هـــذه الرسالة الشعرية التي بز بها جميع اقرانه من الشعراء فقصائده التي القاها امام اعيان زمانه فيها من الروعة، والخيال، والجمال الشعري مايدهش.. فالخيال والتصوير عنـــد الاخرس لايحد، اسمعه في هذه الابيات التي القاها مادحا ابراهيم افندي الرفاعي البصري. قال :

لطفت حتى كأن لم نرهـــا
فتخيلنا الوجـود العدما [2]
في رياض اخذت زخرفهـا
وبكى الغيث لهـــا وابتسما
يوم انس نسر السحب به
في نواحي الجو برداً معلماً [3]

الم تجد سعة في الخيال، وانطلاقاً في الآفاق البعيدة المدى؟ تأمل بكاء الغيث وافتراره ابتسامه، والق نظرة خاطفة على الرياض وزخرفته، واجمل الاجمل انس في سمائه، سحب ملونه جميلة. فهل هذه القصائد من باب المدح والاطناب؟ لا لست اظن ذلك. اسمعه في هذا الانطلاق كرة اخرى، وفيه محبة مجسمة، واخلاص كلي.

قسماً بالفخر في عليائـــه
او تبغي فوق هذا قسماً [4]

لم يجد شاعرنا اجمل من هـــذا الاخلاص، يقرنه بقسم « الفخر » فخر اولئك الاباء الذين اذا اقسموا في علياء

---

(١) بعد سوق عكاظ، كانت هناك محاولات عكاظية فشلت بعد فترة قصيرة.

(٢) القصيدة الاولى من المخطوطة البيت السادس ص ٢١

(٣) نفس القصيدة ص ٢١

(٤) نفس المصدر ص ٢١

المجد او الفخر ، اقدموا ، ولو علموا انه للموت مئات من السهام ، تكمن وراء الرابية . التي تقبع على رابية الطريق ، ولهذا يقول شاعرنا الاخرس « او تبغي فوق هذا قسماً » .

اما في الرثاء ، فللشاعر الاخرس ، اجواء اخرى غير هذه يحلق فيها ، كالنسر الذي يحوم بين قطع السحب البيضاء . بتؤدة ، وافتخار ، واطمئنان . ويقسم قصيدته في الرثاء الى ثلاثة اقسام : باب الفاجعة ، وباب التعزية ، ثم الخاتمة . واليك مثالاً منها .

يقول في رثاء بندر السعدون شيخ المنتفك :

حسام ثقيل المتن اغمد في الثرى
ووارى تراب الارض طلعة نير
فيا عبراتي كل آن تحـدري
ويانار احشائي عليه تسعري (١)

ترى ايغمد الحسام في تراب الارض ، وهج النور في هامتـه ؟ فيا ان الحسام قد أغمد مرغما (فيا عبراتي كل آن تحدري) ، ولا بأس ان تكون جمرات من نار في موقد احشائي لتلتهب .

اما التعزية التي يزفها شاعرنا لأسرة الراحل فهاك بعض ابياتها

نؤمل فيها ان يدوم لنـا بها
حياة ، وما دامت لكسرى وقيصر
ونطمع فيها بالمحـال ، ولم تكن
امانينا الا احـاديث مفتري (٢)

اما الخاتمة فيقول فيها :

ومن ترك الدنيا رآهـا بعينه
قصاصة ثوب او قلامة اضفر (٣)

هذه هي رسالة الشعر عند الاخرس الذي ملأ خافقي العروبة قصائد تسري مسرى النسيم والرياح في كل اجواء العروبة .

ومن هنا ندرك جليا ، ان شاعرنا لم يكن من اولئك الشعراء الذين ينظمون في سبيل استدرار المال ، من ثري تعجبه حياة الاطناب والتبجيل والعظمة . لا ،

(١) القصيدة الثانية ص ٢٤
(٢) نفس القصيدة ص ٢٤
(٣) نفس المصدر ص ٢٤

بل الاخرس له اصدقاء لايحصى عددهم من ادباء عصره ، تفقدهم بقصائده ، واثنى على علمهم [1] ، وله اصدقـاء كثر من الاغنياء تربطه واياهم آصرة الصداقة ، وحب الأدب ، مدحهم في حياتهم ، ورثاهم في موتهم .

الاخرس بين النظم والوحي

النظم في حياة الشعراء ، فترة واهنة امراسها ، اذا توقف عندها الشاعر انهار . فالنظم شبيه بمن يقلد البناء فيضع لبنة على أخرى ، فاذا ارتفع بناء اللبنات هوت الى الارض مبعثرة ، والشاعر الذي يستطيع ان ينظم الكلمات على وزن « المفاعيل » ويزنها بمقياس الشعر . فهو انسان شاعر « محدود » استطاع ان يبني بلا هندسة ، ولا ابداع ، ولا فن .

اما الوحي فطاقاته منحدرة من عالم الالهام ، والشاعر الذي يستقطر من كرمة الوحي خمراً معتقاً ، ويترعه دهاقاً ، ذلك الانسان محظوظ لان آلهة الشعر قبلته على سمت شفتيه ، ورفعته عن اديم الارض ، ليكون حائماً ، محلقاً ، سابحاً بين جوانب الجوزاء ، والرحاب الفضائية اللامتناهية . كقول الارواح تتحدث عن الشاعر فتقول :

شاعر طائر بغير جنـاحين
بأمر الخيال يقضي وأمره [2]

اذن : فما هو موقف الاخرس من هاتين الناحيتين ؟

الاخرس ماتت فترة نظمه وبقيت بين يدينا أشعار وحيه . فلكل شاعر فترة ينظم فيها ، وتمثل مرحلة (حياتية) خاصة تموت في المرحلة الاخيرة من مراحل النظم ، ليبتدىء سيره في معارج الوحي . وفي تلك المرحلة « النظمية » نجد اشعاعا مقتطعاً باهتاً ينحدر من علياء الوحي على مخيلته .. ثم تكون مضيئة منيرة ، وهذه

(١) رأيت في مكتبة الشاعر المعروف حافظ جميل ديوان الاخرس المطبوع بالاستانة وفيه اكثر من ثلاثين قصيدة في حق اسرة « جميل » البغدادية العلمية .

(٢) على بساط الريح للشاعر فوزي المعلوف .

المرحلة اتفق الادباء والشعراء على تسميتها فترة الوحي. وطوبى للشاعر الذي امتدت حياتــه طويلة وأشعة الوحي ترمقه في غدواته، تغفو على سرير مخيلته، لتستيقظ في ساعة أو اقل، وهذه الفترات سميت «بعبقر» او شيطان الشاعر .

امـــا الاخرس، فشاعر طويل النفس، موطن وحيه في السموات التي تعلو الجوزاء. وقصيدته اشبه ماتكون بالموجة التي تسير بغنج ودلال لتموت سمفونية ذات انغام شجية، على ضفاف البحار .

وفي كل قصيدة، تاريخ، وفترة زمنية، ووصف، وحكمة، واخلاق، فيها علو وهبوط، وسمو، وانحدار. خيال مجنح، وفكرة نادرة. فلاتقف في مطالعتك على كلمة «المدح» الا نادراً لأن اجواء الشاعر منطلقة رحبة ولكنك تجد شجون الشاعر تجـاه ثري سخي الكف .

رأي الأستاذ حافظ جميل بالأخرس

يعتقد الاستاذ الشاعر حافظ جميل شاعر العراق الكبير، ان لكل شاعر شاعر يقتدي به، ويخطو على منواله .

وهذا مما لا يقبل الجدل «لأن التشبه بالكرام فلاح». وحدثني الاستاذ الجميل ان شوقي امير شعراء عصره، متأثر كلياً بالشاعر الاخرس، وذهب اكثر من ذلك فقال: «هناك اتفاق متجانس في العبارات» واورد لي منها الشيء الكثير(١) والخيال الرائع عند شوقي شبيه بخيال الاخرس، والعظمة الشعرية عند شوقي هي العظمة ذاتها عند الاخرس .

ولكن يجب ان لاننسى ان كلا من الشاعرين ضمته فترة حياتية ملونة، وكل منها وقف على ابواب الملوك، والامراء، والرؤساء، الذين عاشوا في العصرين المختلفين .

نماذج من شعر الاخرس

مات الاطناب، في هذا العصر تقريباً

(١) والاستاذ الجميل متأثر جداً بالشاعر الاخرس .

والانسان العصري يشمت بكل الوان المدح ، ويؤمن ان الارادة التي تبتكر وتصنع ، وتؤلف وتفيد المجتمع ، كل هذه الاشياء القيمة تكون مدحاً للشخص النابه المبتكر .

والشاعر الأخرس ،شاعر يمدح ابناء زمانه، كعادة عامة جارية. إلا ان الخيال المنسرح عنده ، يأخذك الى اجواء شعرية منطلقة كما بينا .

واليك ذروة الشعر والوصف عند الاخرس اسمعه في مقدمة قصيدة عصماء يمدح بها منيب باشا متصرف البصرة (١):

مستفيـــدا رشفات من فم
لم تكن توجد الا في المنـــام
حبـــذا طيف حبيب زارني
والضيا يعثر (٢) في ذيل الظـلام

ثم يقول :

بابلي اللحظ معسول اللمى
لين الاعطاف ممشوق القوام
وترشفت شذى من مرشف
عنبري الطيب مسكي الختام
انا في السفح ، وما ادراك ما
كان بالسفح ، وفي تلك الخيام
زمنا مر لنـــا في ظله
يرقص البان لتغريد الحمـــام
والندامى مثل ازهـار الربى
يجتنى من لفظها زهر الكلام
والظباء العفر من آرامهـــا
ما بعينيها بجسمي من سقـام

مهلا ورفقا ادباء العصر بهذا الشاعر، الذي يطفر كالأيائل فوق شعفات القمم، وينسج الخيال بابرة سحرية . كلماته مضيئة وتعبيره رائق جدا . اي وصف ، ارق واحلى من « بابلي اللحظ معسول اللمى » حقاً انك لواجد الروعة الفائقة في هذا الوصف.

أتحب القمم !؟ ان شاعرنا يهوى السفوح كذلك ، لأن عند اقدامه تجثو امراس الخيمة البيضاء ، هنـــاك الطيب عنبر ، والبان يحرك شجونه تغاريد الحمام وهديلها . وهل أرق من هذا الوصف « مابعينيها بجسمي من سقام » (٣)!

كما انك لواجد اباء عند شاعرنا، وعفة في الحياة، وطموحاً الى اقصى مراقي الطموح

(١) من قصائد المخطوطة التي نحن بصددها ص ٣٠ القصيدة (٤) .
(٢) في الأصل « بعثر » انظر حاشية المخطوطة .
(٣) القصيدة ٧ ص ٣٩ .

في سبيل ان يحترم كشاعر وكفى [١] :

واجمل بيت في وصف رؤساء عصره وجدته في هذا البيت النادر اذ يقول في قصيدة ألقاها في حضرة سليمان الزهير مادحاً ثم يعود ليغربل انواع الرجال المهيمنين على الحكم، او غير ذلك فيقول، ولله در قوله :

ترفعت عن قوم اذا ما اختبرتهم
وجدت كباراً في صفات اصاغر [٢]

وفي المخطوطة ستجد انفاساً شعرية جديدة لشاعرنا الاخرس .

المخطوطة التي نحن بصددها :

اقدم على نشر هـــذه المخطوطة الدكتور البحاثة يوسف عز الدين، وبذلك اسدى الى المكتبة الشعرية العربية، خدمة جلى ، كما اصدر الدكتور عز الدين مؤلفاً جديداً عن شاعرنا الاخرس يشمل الغامض من ادبه وحياته ، وفنه الشعري الصادق . وما فتىء هذا الأديب اللامع ينفح قراء الضاد بكل طريف او ثمين .

وهو غزير الانتاج الى حد كبير .

اما المخطوطة التي حققها، فقد اخذها نقلا عن مخطوطة المرحوم يعقوب سركيس وعارضها بمخطوطـة دمشق [٣] ، بصبر وجـــلد يشكر على مجهوده المبذول ، واخرجها بطبعة انيقة وورق صقيل ناصع.

الخاتمـــة

اتمنى من الصميم ان لا يغيّب الزمن، ما تبقى من قصائد شاعرنا الاخرس مفخرة العراق ، والعروبة . فأوجه ندائي الى رجال البحث ان يبحثوا عن تراثنا القديم الذي غفا بعضه غفوة طويلة بين مطاوي مكتبتنا .

فشعر الاخرس جدير بالاهتمام والعناية، فهو النبض الحي الذي يمثل الشاعرية في أرض العراق ، حيث يغربـــل الناظمون ، ويطرحون في مهاوي الصمت. بينما شعراء الوحي والالهام يخلدون على مسرح الزمن .. !

(١) القصيدة ٥ ص ٣٣ وكذلك القصيدة ٨ ص ٤٢ .
(٢) البيت الثاني عشر من القصيدة ٨ ص ٤٣ .
(٣) انظر مقدمة المخطوطة للناشر .
(٤) اما ان هناك اخطاء في النقل والمطبعة ، اوجبت الاعتراضات من الاساتذة منير القاضي والدكتور مصطفى جواد والاستاذ ابراهيم الوائلي ـ فستكون حتما حافزاً لتصحيح ماشرد منها ، في الطبعة التالية ، وكفى الاستاذ الدكتور انه اخرجها الى عشاق الادب والشعر .

لعبد القادر عياش

نقد وعرض واستدراك حامد حسن

١ – الكاتب

يتمتع الاستاذ عبد القادر عياش عضو لجنة الفنون الشعبية في المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية وصاحب مجلة « صوت الفرات »، بنشاط مستمر ، واطلاع واسع، ودأب متواصل في البحث واستقراء التقاليد والعادات الشعبية في الجزيرة الفراتية والكشف عن نشأتها ومصادرها وتدرجها التاريخي ، وأثرها في حياة مواطنيه .

تشكل ابحاث الاستاذ عياش في هذه المواضيع مكتبة خاصة ، وتعد — بحق — خير مرجع للباحثين ، واوسع سجل للمتقين الدارسين من العرب والمستشرقين الذين يتسقطون هذه الابحاث من مختلف المراجع والمظان .

ونذكر من هذه السلسلة على سبيل المثال ، لا على سبيل الحصر :

١ – الغناء الشعبي في وادي الفرات

٢ – الامثال الشعبية في الجزيرة الفراتية

٣ – اليمين القسم في وادي الفرات

٤ – الخبز في دير الزور
٥ – الحمدانيون .. وأبو فراس الحمداني
٦ – الأزياء في الجزيرة الفراتية
٧ – موقعة صفين

وغير ذلك ، بعضها نشر ، واكثرها لم يزل مخطوطاً

ولم يقتصر نشاط الاستاذ عياش في هذه المجالات على البحث والتأليف والنشر بل تعدى كل ذلك ، فعمد الى اقامة متحف خاص في بيته ، يعتبر من أجمل وأوسع ، وأغنى المتاحف الخاصة ، زوده بكل ماوصلت اليه يده ، وتوصلت اليه امكاناته المادية من الآثار والتقاليد الشعبية المعروفة قديماً وحديثاً في وادي الفرات . ويشرف بنفسه على تنسيقه وادارته . وارشاد الزائرين وشرح مايغمض عليهم من محتوياته .

ولو تسنى لهذا المتحف ان ينقل الى دوائر الآثار لكثر مرتادوه ، وتضاعف زواره ، وعمت فائدته .

٢ – الكتاب

وبين يدي الآن الكتاب الجديد الذي أصدره الاستاذ عياش من سلسلته الخاصة ، وعنوانه « البيت في حياة العرب » .

أهدى الاستاذ عياش كتابه هذا الى زوجته المتوفاة ، اخلاصاً لها، وتمجيداً لذكراها ، ومن أجدر من الزوجة الوفية باهداء امثال هذه البحوث ، والبيت – كما نعلم – مملكة الزوجة . ولذلك اشتق العرب اسماء مشتركة للبيت والزوجة . فالبيت في لغتهم سكن وسكنى والزوجة سكن وسكنى . قال الشاعر الطغرائي:

فيم الاقامة بالزوراء لاسكني
بها ولا ناقتي فيها ، ولا جملي

وفي القرآن الكريم (وجعل لكم من انفسكم سكناً) .

وكثيراً مايكني العرب بالبيت عن الزوجة ، فيقولون : كيف البيت ؟

أورد المؤلف بعض التعريفات للمنزل وذكر خمسة وستين اسماً من اسماء البيت، واسماء اجزائه ، جاءت في لغة العرب واشعارهم ، وبعضها ورد في القرآن الكريم كالبيت ، والمنزل ، والحجرة ، والدار، والرفرف، والمأوى ، والمسكن، والملجأ .

وذكر المؤلف من اقسام البيت الشقاق : جمع شقة ، وهي الجزء من البيت ، وقال : تقسم الشقاق بقطع من الصوف او القماش ، او الجلد ، تعلق في الاعلى وتسدل الى الاسفل .

وهذه القطع تسمى السّجف ، ويجمع على سجاف وسجوف وسُجُف ، قال الشاعر شهاب الدين الموسوي المعروف بابن معتوق :

كشفت حجاب السجف عن بيضة الخدر
فزحزحت جنح الليل عن طلعة الفجر

ويسمى الجزء الخاص بالنساء خدراً وخباء . قال امرؤ القيس :

وبيضةِ خدرٍ لايرام خباؤها
تمتعتُ من لهو بها غيرَ معجَلِ

ويذكر المؤلف ان العرب اطلقوا اسم البيت على الجزء الواحد من القصيدة وسموا مقطعاته اسباباً واوتاداً ، على التشبيه وقالوا : عمود الشعر .

العرب اطلقوا اسم البيت ، بيت الشّعر ، على البيت من الشَّعر وقسموا بيت الشّعر الى مصراعين ، كمصراعي باب البيت ، وسموا المقاطع اسباباً واوتاداً وفواصل ، كالحبال التي تشد البيت والاوتاد التي تربط بها ، والفواصل التي تقسمه الى اجزاء .

اما لفظة عمود الشعر فهي مستحدثة ، اطلقها المولدون في العصر العباسي على الشعراء الذين يلتزمون نمط الشعر الجاهلي من وقوف على الاطلال وبكاء واستبكاء .

ويتناول المؤلف نشأة البيت تاريخياً ، والأسباب الداعية لايجاده ، منذ الأقوام البدائية حتى العصر الحاضر .

ولم يفته ان يعرض «للديكور» قديماً وحديثاً ، وكيف كان يظهر على الأبواب والجدران وارض البيت ، كما يظهر الآن في دير الزور ، حاضرة الفرات ، كما يطيب له ان يدعوها .

ويقول ان بعض الاغنياء يجعلون من بيوتهم منتديات . ونقول ان المنتديات عرفت منذ القديم عند العرب . قال طرفة ابن العبد :

فان تبغني في « ندوة » القوم تلقني
وان تقتنصني في الحوانيت تصطد

وقالت الخنساء تمدح أخاها صخراً :

هباط اودية شهّاد « أندية »
حمّالُ ألوية ، لحروب مسعار

ومنتدى سكينة بنت الحسين للشعر والشعراء يعرفه كل من عني بدراسة العصر الأموي ادبياً واجتماعياً .

ويعدد المؤلف انواع البيوت فيقول: بعضها يقام على عمود واحد وبعضها على عمودين او اكثر .

ونحن نعلم ان البيت العربي يصل الى سبعة اعمدة ، ويدعونه «المسوبع» وهو اكبر البيوت عندهم ، وكبر البيت وارتفاعه يدلان على المكانة والثراء والكرم . قال الفرزدق :

ان الذي سمك السماء بنى لنـــا
بيتاً دعـــائمه أعزُّ وأطولُ

وقالت الخنساء :

طويل النجاد ، رفيعُ العماد
ســـاد عشيرته أمردا

وقال عنترة ، وبالغ في ارتفاع بيته :

ولي بيت عـــلا فلك الثريا
تخرُّ لعظم هيبته البيوتُ

فارتفاع البيت في لغة العرب ـ حقيقة ومجازاً ـ يدل على المجد والثروة والتفوق .

ويعرج الاستاذ عياش على ذكر البيت في الاسطورة ويذكر قرية للجن هي عبقر .

ونضيف الى ذلك أن هناك امكنة أخرى وبيوتاً للجن وردت في اشعار العرب واساطيرهم . ومنها موضع يسمى « البُقّار » بضم الباء ، وهو موضع بالقرب من رملة عالج ، مشهور بشرارة جنّه .. قال الشاعر يصف قومه بالشجـــاعة ، وملازمة الحديد لأجسادهم :

سَهِكين من صَدأ الحديد ، كأنهم
تحت السَّنَوَّر جِنةُ البُقّار

سهك الجسد : اذا كانت له رائحة ، وقيل : ان السهك هو رائحة الحديـد خاصة ، والسَّنَوَّر : الغبار ، والبُقار تقدم ذكره ، ورملة عالج وردت في شعر المنتجب العاني من شعراء القرن الخامس الهجري :

ولما التقينا دون رملة عالجٍ
وكل بمن يهواه أضحى يرحّبُ

ويعمد المؤلف الى ذكر بعض الخرافات

التي رافقت ولم تزل ترافق بناء البيوت ، كالذبائح التي تذبح على العتبات ، ودفن الدراهم في اساس البيت وزواياه، ولكنه لم يتعرض لنشأة تلك العادات التاريخية ، ولم يعلل ذلك تعليلا علميا مقنعا .

ان اسطورة الذبائح وتلطيخ الابواب والاعتاب بدمها هي عادة وثنية قديمة ، يقصد بها التقرب الى الآلهة ، واستدرار عطفها ، لجلب السعادة والبركة على البيت وساكنيه .

وفي التوراة: (يقول الرب لموسى عن كل ذكر من بني اسرائيل تذبح فرخي حمام او زوجي يمام، وتلطخ المذبح بدمها ويأكلها الكاهن في قدس الاقداس .)

ودفن الدراهم في زوايا البيت ترمي الى جلب الرزق والمال الى ساكنيه .

ولم يزل في ريفنا السوري من يستقبل الهلال لدى رؤيتـــه بقطعة من الدراهم الفضية ثم يحتفظ بها في جيبه طوال الشهر لتربو دراهمه، و تزداد ثروته وموارده .

وهذه الاسطورة مصدرهـــا بعض الاقوال القديمة : ان القمر يرمز لمعدن الفضة ، والشمس لمعدن الذهب .

ويوجد ايضا من يعتقد ان أيام الشهر الهلالي قسمان : نحسة ، وسعيدة ، وان بناء البيت والخطوبة والزواج والسفر وزراعة الكروم ، يجب أن تبدأ بالايام السعيدة أو « الطيبة » .

ويقولون ان للقمر ثماني وعشرين منزلة وهي :الشرطين، والبطين، والثريا ، والدبرآنا ، والهقعة ، والهنعة ، والزراع، والنثرة ، والطرفة ، والجبهة ، والزبرة ، والصرفة ، والقوا ، والسماك، والغفرة ، والزبانين ، والاكليل، والقلب، والشولة ، والنعايم، والبلدة ، وسعد الذابح ، وسعد بلع ، وسعد الجبايا ، وسعد السعود ، والفرع المقدم ، والفرع المؤخر ، وبطن الحوت .

وهـذه المنازل يقابلهـا من حروف الهجاء ثمانية وعشرون حرفا اولها الألف وآخرها الياء ، فكل حرف معجم اي منقوط هو جيد وخير وملآن ، وكل حرف مهمل اي بدون نقط ، هو نحس او فارغ .

ويقول المؤلف ان تجـاور البيوت نشأت عنه اعراف وتقاليـــد وحقوق

وواجبات. وذكر شيئا من القرآن والحديث يتعلق بآداب المجاورة، وحفظ الجوار.

ونضيف الى ما أورده بعض ماجاء في اقوال العرب في هذا الشأن قال السموأل بن عادياء صاحب حصن الابلق الفرد في تيماء يصف عزة جاره :

وماضرنا أنا قليل ، وجارنا
عزيز ، وجار الاكثرين ذليل

وقال حاتم الطائي يخاطب زوجته :

أيا ابنة عبد الله يا ابنـــة مالك
ويا ابنة ذي السفين والاشقر الورد
اذا ماوضعت الزاد ، فالتمسي له
أكيلاً، فاني لستُ آكله وحدي
أخاً طارقاً، او جار بيت ،، فانني
أخاف مذمات الأحاديث من بعدي
وكيف يُسيغ المرء زاداً، وجارُه
خفيف المِعَا بين الخصاصة والجهد؟

وقال آخر :

يلومونني ان بعتُ بالرخص منزلي
وما علِموا جاراً هناك يُنغِّص
فقلتُ لهم : كفوا الملامَ ، فانما
بجيرانها تغلو الديارُ ، وترخُصُ

ويذكر المؤلف ان البيت وآدابه وردت في عشرين موضعاً من القرآن ، كما وردت في الحديث ، ونصت عليها القوانين ، وأورد أربعة عشر مثلا من امثال العرب في البيت وآدابه .

ولم يفته ان يذكر المنازل والرسوم والاطلال لعلاقتها المباشرة بموضوعه ، وأورد أقوالا في رثاء المـــدن كقصيد البحتري في ايوان كسرى ولكنه اورد بعض ابياتها خطأ على هذه الصورة :

ذاك عندي وليست الدار داري
باقتراب منها وليس الجنس جنسي

والصواب : ولا الجنس جنسي . ولعل الخطأ مطبعي !!

واورد ابياتاً من قصيدة شوقي التي عارض بها البحتري .

ونورد هنا أبياتاً تعـــد من احسن واجمل وابلغ ماقيل في الآثار .

قال أحدم وقـــد رأى رجلا يهدم أثراً عمرانياً :

مورت برسم في «شيات» فراعني
بها زجَلُ الاحجار تحت المعاول

يقومُ بها علُ الذراع ، كأنما
رمى الدهرُ فيما بينهم حربَ وائلِ
فقلتُ له : شلّت يمينك ، خلّها
لمعتبرٍ ، أو زائرٍ ، أو مُسائلِ
منازلُ قومٍ حدثتنا حديثهم
ولم أرَ أحلى من حديثِ المنازلِ

وفي رثاء المدن اورد أبياتاً من قصيدة ابن الرومي في رثاء البصـــرة ، وابياتاً لشمس الدين الكوفي وسعدي الشيرازي في رثاء بغداد عند نكبة التتار وكذلك ما قيل في دمشق والاندلس . ولكنه لم يشر الى رثاء الاندلس لأبي البقاء صالح الرندي وهي افجع واوجع وابلغ واشهر رثاء في المدن ، ومنها :

يا راكبين عتاقَ الخيل مُعلَمةً
كأنها في مجالِ السبقِ عُقبانُ
اعندكم نبأٌ عن أهلِ اندلسٍ
فقد سرى بحديث القوم رُكبان

وهذه القصيدة اتكأ عليها شوقي ، واستوحاها في قصيدته بدمشق :

قمْ ناجِ جلّق وانشد رسمَ من بانوا
مشت على الرسم أحداث وازمان
مررتُ بالمسجد المحزون أسأله
أبا لمصلّى ؟ ام المحراب مروان ؟

والكتاب يحوي بحوثاً اخرى تتعلق بالبيت ، كبيوت السكن في الفرات ، وأقسامها ، وانواعها ، وتطورها .

والبحث جزيل الفائـــدة تاريخياً والتعرّجات لكنه ينقصه التعليل العلمي أحياناً ، واللغة والاسلوب سليمان بسيطان بعيدان عن التعمل والحذلقة والتكلف .

عناوين الاصدقاء والمشتركين

يرجى من الاساتذة الذين تهدى اليهم المعرفة ، والمشتركين ، أن يعلموا ادارة مجلة المعرفة بأي تبدل يطرأ على عناوينهم . فاذا لم يبلغنا هذا الاعلام ، ولم نتأكد من العنوان ، اضطرت الادارة الى التوقف عن ارسال المجلة .

الغريبة

مجموعة قصصية ، نشر مكتبة أطلس ، دمشق ، ١٩٦٦

تأليف : سلمى الحفار الكزبري

نقد وتحليل : عدنان ابن ذريل

القاصة (سلمى الحفار الكزبري)من قصاصينا المحدثين ، السرديين، التحليليين ، الذين ظلوا مع عمود القصة العربية السورية ولم يجنحوا فيها الى رمز ولا الى عبث ، أو لامعقول .

ان (السرد) الواقعي عن المجتمع و (التحليل)البسيط عن الحياة — وغالباً مانجدهما جنبـــاً الى جنب في القصة الواحدة عندها — هما سبيلها الى رصد مشاهداتها، اوترسم مرئياتها ، او توضيح تجارب ابطالها ، او تجربتها هي نفسها ازاءهم .

والمجموعة القصصية : (الغريبة) ، التي صدرت مؤخراً عن مكتبة أطلس ، دمشق ١٩٦٦ ، هي المجموعة الثالثة لها ، بعد أن أصدرت: (حرمان)عام ١٩٥٢ و (زوايا) عام١٩٥٥وهماايضاًسرديتان تحليليتان من المجتمع والحياة ..

(البناء القصصي) في هذه القصص هو بناءالحكاية،او لنقل ايضاً(الريبورتاج) أي (السرد) المتسلسل الى خاتمـــة ، و(التقرير)الأمين عن ماجريات الأحداث، واللذان تتوخى المؤلفة منهما الصدق والدقة والعبرة ايضاً ، دون ان تنسى معطياتها

الشخصية ، أي صلتها بمضمون القصة ، او موقفها منه ايضاً . .

(الموضوعات) في المجموعة تلفت النظر ، أنها مشاهدات،او ايضاًماجريات حياة خاصة ، متصلة عميق الصلة بتجربة المؤلفة وخبرتها في الحيـــاة ، وزياراتها للبلاد الأوربية والامريكية .

والحقيقة أن قسماً لابأس به ، من هذه القصص ، هو عبارة عن لوحـــات وماجريات أحداث تهم القارىء العربي السوري . . وهي القصص المتعلقة بالمهجر العربي السوري في الامريكتين ، او بالمهجريين العرب السوريين هناك ، لانها ، بالفعل ، تتصل بفئة من أبنـــاء الوطن هناك ، حياتهم ، كدهم ، سعيهم ، مكاسبهم ، علاقتهم بالوطن . .

في حين تمت قصص لمشاهـــدات وما جريات حياتيـــة رصفت للفن . . وهي التي تتعلق بمشاهد مصارعة الثيران في اسبانيا ، وحكايات المصارعين ، او التي تتعلق بجوانب من الحياة الاجتماعية والفنية هناك . .

بينا قسم آخر من هـــذه القصص (لوحات) تحليلية ، أو (خواطر) تهذيبية يفتقد بعضها مقومات القصة . .

والملاحظ ، أن حس (الريبورتاج) اي حس (التقرير) الدقيق الأمين ، عن الواقع المترسم ، هو الذي طبع معظم هذه القصص ، والحكايات ، واللوحات ، بطابعه ؛ حتى أنه عكس ، في بعض الأحيان ، (حضور) المؤلفة ، التي تروي القصة ، أو آراءها فيها . .

مثل ذلك ، قصة (السنيورة أبيض) انها ، بالأحرى ، ريبورتاج للقاء القاصة بهذه السيدة المهجرية ، تبدأه المؤلفة على الشكل التالي : « كنت قد سمعت الكثير من الثناء على السنيورة ابيض ، اثناء اقامتي في بوينس آيرس ، عاصمة الأرجنتين . » وتنتهي القصة في صبرها على الزمان ، ومحاولة احد المدراء التغرير بها ؛ ثم تقول المؤلفة انها اجتمعت بها في احدى الحفلات فقدمت لهاذلك المدير ، واذا به يرتبك الخ.

وقصة (بطولة غير منتظرة) مثلها ايضاً ، في (مهاجر) تمانع زوجته ان يعلق ولداها بالرياضة الشاقة والصراع ؛ وتقول المؤلفة ، بعد عرض الموقف ، أن الزوجة حكمتها في الموضوع : — ثم احتكمت الي على مسمع منه ، وقالت : هل يصح ؟ . . — الخ . . ثم تتابع القصة ،

والمؤلفة والحضور يشاركون في استنزالها من المهاجر .. والذي يروي كيف كان يمارس هذه الهواية في مصر التي مكث فيها ثماني سنوات ، وكان يود الزواج من مصرية ، ثم كيف كانت هذه الهواية سبيله الى الشهرة وجمع الأموال في باديء امره في المهجر ..

في حين ان قصة (البخيل) هي (ريبورتاج) واسع ، وموضوعي ،تعرضه المؤلفة دون اشعار بمعرفة ابطاله .. ومفاده وراثة أخ اجتماعي و كريم لأخ بخيل مقتر ؛ والاخوان مثل أبيهما المهـــاجر عصاميان ؛ وتستهلها المؤلفة بـ : — نزل الشيخ احمد من حمص الى البرازيل قبل نحو من نصف قرن .. — .

أما(العودة) ، و (سرالحورات) ، فمفارقتان من حياة المهجريين الأولى ، في موت مهاجر أثر عودته مباشرة الى أرض الوطن ، والثانية في التنبؤ بموت حورات ثلاث بموت شاب مهاجر ..

وتعتبر قصة (الغريبة) التي تحمل المجموعة عنوانها ، أبرز قصص المجموعة ، وهي في (موت) مهاجرة ، غريبـــة ، وتركية الأصل .. وعلى الأغلب ، مسمومة في المستشفى ، بسبب حب زوجها عليها ثم دفنهـــا هناك .. وتستهلها المؤلفة بـ : أغفري لي ياأفضل زوجة ، وأرق امرأة ، وأكرم أم عرفت ، أن نشـــرت قصة حياتك المبهمة .. ان من حقك علي ، أنا من عرفتك في وطني ، ثم عشت معك آخر فصول مأساتك في المهجر ، أن أذيع على الناس ، ماعرفت ، وشاهدت ، ولعلهم يجدون في هذه القصص عبرة من دنياهم او عزاء في غربتهم ، وما أكثر الغرباء بين أقرب المقربين ..

هـذه (القصة) مزيـج من السرد الريبورتاجي ، والتحليل العـــاطفي ، والوصف النفسي ، وعلى الخصوص لموقف المؤلفة من مأساة صديقتها ، او لحـال الصديقة في آخريات أيامها في المستشفى غريبة ، وحيدة ، مهملة ..

ولا تخرج القصص الاخرى عن هذه الفنية القصصية ، الريبورتاجية في الأساس الا من حيث (الأوصاف) التي فيها عن مشاهد من الحياة والمجتمعات الأجنبية ، في حين ان قصة (الأسيران) ، رغم قيامها على السرد الريبورتاجي ، هي اقرب الى (خاطرة) تهذيبية ، في الحرية ، والرفق بالحيوان ، وتدور حول شحرورين يقيدهما أولاد القاصة في قفص ، ثم تطلقهما منه ..

كنت أود أن لا أرد على الزميل (غازي خالدي) في كتابته عن معرض طلاب مركز الفنون التشكيلية ، لولا تعرضه لبعض النقاط الهامة، التي تستدعي توضيحاً ليكون القارىء على بينة .

وبالدرجة الاولى يجب أن نوضح اسئلة هامة نسيها الناقد وهي :

– ما هي مهمة مراكز الفنون التشكيلية ؟؟

– كيف تعمل هذه المراكز لتصل الى تحقيق مهمتها .

– هل يمثل هذا المعرض خطوة نحو تحقيق اهدافها !

– ما هي العقبات التي تقف بوجه تقدمها وتطورها .

هذه هي الاسئلة التي نطرحها دوماً حين نناقش احد معارض طلاب مراكز الفنون التشكيلية ، قبل ان نناقش أي مقدمات نظرية في كيفية تعليم الفنون ، كما نأخذها من أي كتاب تعليمي في اساليب تدريس الطلبة . إن الشيء الهام هو ان نعرف ظروف هذه المراكز ، وامكاناتها ، والشروط الصعبة التي تعيشها، لا ان نتحدث بشكل نظري عن كيف يكون عمل الطالب جيداً . إن اي فنان

درس الاصول الاكاديمية يستطيع ان يتحدث شارحاً هذه الاصول ، ولكن كيف يمكن ان نتوصل الى تطبيق هذه الآراء ، ثم هل الاصول الاكاديمية التي انطلقت من الاكاديمية الفرنسية التي اسسها (دافيد) هي الاصول الصحيحة لتعليم الرسم ، ام ان التجارب الفنية الحديثة قد اعطت التعليم الفني امكانات جديدة ؟

لابد لنا من ان نبدأ البحث من نقطة هامة وهي : لقد جاء في النظام الخاص بمراكز الفنون التشكيلية وهو القرار رقم ٢٢ / ولعام ١٩٦٥ ان مهمة المراكز تتحدد في النقطتين التاليتين الاساسيتين :

– تنمية مواهب الهواة وتأهيلهم للانتاج الفني .

– فسح المجال للفنانين للعمل والانتاج .

فنحن امام فئتين من الطـــلاب فئة هاوية تحب ان تتعلم وتملك موهبة ، واخرى وصلت الى مرحلة فنية جيدة ، وهـذا المركز بمثابة مرسم لكل هاو للفن او فنان .

فهو ليس مدرسة ، وليس أكاديمية ، وليس كلية للفنون ، الفن هواية لفنانين ومحاولة من قبلهم للوصول الى تعلم الفن .

وهذا كله يبرر أسلوب العمل الذي نتبعه في هذه المراكز ، اذ نحن لا نفرض اتجاهاً فنياً ولا نسمح بأن يفرض هـذا الاتجاه على الطالب بعد ان يجتاز مرحلة معينة ، ولكننا نشعر بأن الطالب يتأثر بشكل طبيعي باستاذه ، اذ ان التعليم الفني الآن في كل دول العالم المتطورة يجري على أساس (مراسم) فنية يتلقى الطالب فيها من استاذه كل ما يحتاج اليه خلال فترة الدراسة الطويلة التي تمتد عدة أعوام ، وهل سيتأثر بأستاذه حتما ، (هل يوجد فنان لم يتأثر باستاذه) ؟

ونحن نسير في هذا الاتجاه ، أي اتجاه تعليم الفن على أساس تلقيه عن استاذ معين وتتلمذ على هذا الاستاذ . لأن المركز كما قلت قد صمم على أساس ان يكون (مرسماً حراً) لا (أكاديمية) ضيقة الأفق ، تعلم مبادىء الرسم ، وتأخذ طلابها بجمود وضيق أفق ، بحيث يفر منها نصفهم لضيق صدرها بهم .

ان التعليم مهمة شاقة جداً ، وعلى الأخص في بلادنا ، لأنها تتطلب قبل كل شيء ازاحة رواسب سنـــين طويلة من

التخلف والتحجر ، ومن كراهية الفن ، ومن الفهم الخاطىء للعمل الفني ، ومن التحجر في عقلية الذين لا يفهمون مهمة الفن الفهم الصادق الصحيح ، كما أن الأخذ بأسلوب تعليمي واحد ونقله — كما طلب منا الاستاذ غازي الخالدي — خطأ في رأيي يستدعي ان نوضح أسبابه :

١ — لايمكن ان تعلم مجموعة من الطلاب مختلفة الامكانات والمواهب والطبقات والثقافة والأعمار والتذوق بأسلوب فني واحد ، أو قانون جامد مها كان هذا القانون قانوناً جيداً ، لأنك ستضحي بمواهب كثيرة لا يمكن أن تطبق على قانونك الصارم ، والمراكز تحتوي على متناقضات شتى بين الطلبة .

٢ — لايمكن أن تعلم الطالب مالم تكتشف موطن ابداعه ، وتحاول أن تغذيه من خلال هذا الموطن ، فلو كان انطباعيا لأعطيته أسس الانطباعية ولو كان كلاسيكيا لشجعته ، ولو وجدت عنده نزعات حديثه لساعدته على فهم هذه الاتجاهات . وبذلك تكون قد أعطيت كل طالب ضمن مجال ابداعه .

٣ — تعليم الفنون لايقتصر على النواحي التي ذكرها الناقد لأنها الجوانب الخارجية من التعليم ، ولو أتقن رسام كل الجوانب ، اي مشكلة اللون والكتلة والتشريح وطبيعة الخامات ومتانة الخطوط والتكوين .. الخ هل يصبح فناناً جيداً ؟

أستطيع القول بأن هذه الامور ضرورية لمبتدىء في الفن ولكنها ليست كافية لمن يريد ان يتجاوز أن يكون طالباً ؟

وهذه الأمور التي أعطاها الأخ غازي كل الأهمية ليست هامة على الاطلاق في رأيه حين يتحدث عن كلية الفنون الجميلة مثلاً .

لماذا لايطلب من اساتذة كلية الفنون الجميلة تعليم هذه المبادىء، اذا كان مؤمناً بها !

ان اسلوب التعليم في كلية الفنون الجميلة يجنح نحو التعليم بأساليب حديثة لاتهتم بكل ماعدده الناقد ؟!

واستطيع ان أروي حادثة طريفة جرت معي منذ فترة ، اذ زارنا أحد الفنانين الاجانب ، وبعد أن طاف في مركز الفنون التشكيلية ، سألني سؤال حيرني وقال لي فيه حرفياً :

— انني استغرب أن تعلم كلية الفنون الجميلة بأساليب حديثة ، وهي الكلية التي

تمنح شهادة اختصاص، ويعلم مركز الفنون التشكيلية بأساليب واقعية وهو مركز هواة، مع أن الاسلوب الصحيح يجب ان يكون معكوساً بحيث تعلم الكلية بأساليب اكاديمية، ويعلم المركز بأساليب حرة، نظراً لأن المراكز أماكن للهواة لا تعطي شهادات ولا تستطيع ان تلزم الطلاب الالزام الضروري للأسلوب الاكاديمي الدقيق.

فالحقيقة الجوهرية في المشكلة الفنية عندنا، هي أن المراكز « مراسم للهواة » لا تستطيع فيها الادارة أن تلزم الا ضمن حدود ضيقة، والا ترك الطالب وانسحب اذا بقيت تعلمه كيف يرسم (المواشير والمكعبات) ثلاث دورات أي سنة ونصف - كما يقترح الاستاذ غازي - وبدون ألوان. ان ذلك لن يبقي من الطلاب الا اقل مما يتوقع، وعلى الاخص اننا سنبقي الطلاب يرسمون بالقلم الرصاص فقط، ونعطيه الاهمية الكبرى.

ان الاسلوب الجامد والصارم الذي يقترحه الاستاذ غازي الخالدي لا يلائم ظروف العمل الفني عندنا، ويمكن أن يتلاءم مع مدرسة فنية تعطي طلابها علامات وتجبرهم على اتباع اسلوب صارم في لينالوا شهادة فنية توظف بعضهم او تؤهلهم لدخول كلية الفنون.

أما بالنسبة لمرسم حر، لا فائدة ترجى من شهادته، فان اتباع اسلوب مرن في التعليم يستفيد من هواية الطالب وامكاناته هو الاسلوب الصحيح، وأعتقد ان الهواية والتشجيع يستطيعان أن يعطيا ثماراً اكثر من اساليب التعليم الصارمة التي تأخذ الطلاب بالعصا.

واخيراً أقول: ان المناهج التي يقترحها الاستاذ غازي الخالدي مناهج نظرية لا يمكن تطبيقها الا في حال وجود مدرسة يتمتع طلابها بتقارب في المستويات بحيث يمكن ان تضع منهجاً موحداً صارماً، اما اذا جاءك طالب موهوب منذ الدورة الاولى فهل تطلب منه ان لا يرسم بالالوان طيلة ثلاث دورات مثلاً؟! إن ذلك سيدفعه الى ترك المركز، والبحث عن مكان افضل لممارسة هوايته؟!

اعتقد أن مشاكل مراكز الفنون التشكيلية كثيرة ولا يمكن ان تحل بمقال سريع، بل بدراسة داخلية تتناول اعماق مشكلة الفنون عندنا، وفهم نفسية الطلبة، والتحاور مع مشاكلهم الخاصة حتى نصل الى حلول صحيحة. واخيراً نأمل أن تكون هذه الملاحظات كافية لتوضيح مواقفنا.

رئيس مركز الفنون التشكيلية بدمشق

طارق الشريف

- معجم فقه ابن حزم الظاهري
- تاريخ سورية في العصور الحديثة .. للدكتور نادر العطار
- الغرباء .. لفتحي سعيد
- أحمد فارس الشدياق ... لمحمد عبد الغني حسن

معجم فقه ابن حزم الظاهري

أصدرت لجنة موسوعة الفقه الاسلامي في جامعة دمشق (معجم فقه ابن حزم الظاهري) في مجلدين مجموعها ١١٤٥ صفحة . ويعتبر هذا المعجم مشروعاً لموسوعة الفقه الاسلامي ، فهرس فيه كتاب (المحلى) للامام ابو محمد علي بن أحمد الأندلسي المعروف بابن حزم الظاهري (٣٨٤ - ٥٥٦ هـ .) ، على حروف الهجاء . وسجلت خلاصة الحكم الفقهي الذي يستقر عليه ابن حزم في كل موضوع تحت الكلمة العنوانية التي تدل عليه في المعجم . ونهض بهذا العمل عدد من العلماء منهم عضو اللجنة محمد المنتصر الكتاني والقاضي المصري محمود المكادي والشيخ عبد الفتاح أبو غدة ، وأشير الى جانب الكلمة العنوانية الى الصفحة التي فيها تفصيل الحكم في المحلى . قدم المعجم رئيس اللجنة مصطفى الزرقا كما قدم له الاستاذ الكتاني بمقدمة عن ابن حزم وفقهه وأدبه وكتابه المحلى ومصادره وطبعاته . وألحق بالمعجم فهرس

بالكلمات الفقهية بحسب الموضوعات ، وفهرس بترتيبها على أحرف الهجاء .

تاريخ سورية في العصور الحديثة . الجزء الأول من دور حكم السلاطين الفعلي في العهد العثماني (١٥١٦-١٩٠٨)

يقوم الدكتور نادر العطار بتأليف كتاب عن (تاريخ سورية في العصور الحديثة) ، وموضوع الجزء الاول الذي صدر منه (دور حكم السلاطين في العهد العثماني ١٥١٦ - ١٩٠٨) ويقع في ٣٨٣ صفحة : يضم هـــذا الجزء نصوص ٤٠ وثيقة تاريخية ، مع قائمة بشرح بعض الكلمات والمصطلحات المعروفة في العهد العثماني، وقائمة بالأحداث التاريخية، وقائمة بولاة الشام مع تاريخ تعيين كل منهم ومدة ولايته ، وفهرس للأعلام ، وفهرس للأمكنة ، وشجرة للأقوام ، وخريطة تقسيم سورية الاداري في العهد العثماني .

الغرباء

أصدرت الدار القومية للطباعة والنشر في القـــاهرة ، في سلسلة (مذاهب وشخصيات) كتاب (الغرباء) للكاتب المصري فتحي سعيد . يقع الكتاب في ١٢٦ صفحة ويتحدث عن نخبة من الشعراء العرب مع شاعرين أجنبيين ، ورأى أنهم « عاشوا أوراقاً لعبت بها رياح الابد .. وعبروا غرباء صرعتهم الحقيقة الغائبة » . وهؤلاء الغرباء هم : الشاعر المصري صالح الشرنوبي (١٩٢٤ - ١٩٥٠) ومعاصره شاعر الاعراف محمد عبد المعطي الهمشري (١٩٠٨ - ١٩٣٨) والشاعر اللبناني فوزي المعلوف (١٨٩٩ - ١٩٣٠) وطائر انكلترا الغريق شيلي والشاعر العراقي بدر شاكر السياب (١٩٢٦ - ١٩٦٤) والشاعر البلغاري فابتزاروف (١٩٠٩ - ١٩٤٢) والشاعر الفلسطيني ابراهيم طوقان (١٩٠٥ — ١٩٤١) وفتى الربوة العالية سيد درويش (١٨٩٢ — ١٩٢٣) . ولا ينسى الكتاب الشعراء الصعاليك الذين كانوا غرباء عن المجتمع الجاهلي واشتهر منهم عروة الصعاليك .

أحمد فارس الشدياق

اصدرت الدار المصرية للتـــأليف والترجمـــة الحلقة ٥٠ من سلسلة اعلام العرب وهي عن (احمد فارس الشدياق)

للأديب المؤرخ المصري محمد عبد الغني حسن. يقع الكتاب في ٢٠٠ صفحة، ويوجز حياة الأديب اللبناني احمد فارس الشدياق (١٨٠٥ – ١٨٨٧)، ويصور ملامح عصره، ويشرّح الطائفية، ويبين مصادر ثقافته، ويشير الى عروبته، ويصف رحلاته، ويتحدث عن لقاءاته ومقابلاته، ويدرس نقده اللغوي والاجتماعي، ويتكلم عن كتاباته بين الفكاهة والسخرية والمجون، ويعكف على شعره وفنه القصصي ودوره في اللغويات والترجمة، ويشرح أثر صحيفته (الجوائب) في الطباعة والصحافة العربية، ويشيد بمناصرته المرأة، ويلقي نظرة على المعارك الأدبية التي خاضها، ويحدد مكانه في النهضة الأدبية والتجديد، ثم يتحدث عن وفاته وتشييعه ورثائه.

ويختتم الكتاب بقائمة بمؤلفات الشدياق المطبوعة وغير المطبوعة، مع ملاحظة ان زيدان يروي في تراجمه أن للشدياق ديوان شعر من نظمه يشتمل على اثنتين وعشرين الف بيت، وأن المؤرخ طرازي الذي يذكر الخبر يصف هذا الديوان المخطوط بأنه كبير الحجم بحيث أنه اعظم من كتاب (الجاسوس على القاموس) للشدياق.



نعت الأوساط الفكرية الدكتور احمد السمان وزير الثقافة ورئيس الجامعة السورية السابق . وقد شيع الفقيد الكبير في موكب مشى فيه رجال العلم والأدب في البلاد التي خدمها أجل الخدمات .

والمرحوم الدكتور السمان من اوائل المثقفين العرب الذين أتموا في الثلاثين الاولى من هذا القرن علومهم الحقوقية والاقتصادية العليا في باريس . وكانت اولى البحوث في تعريف الاشتراكية التي نشرت في دمشق حوالي عام ١٩٣٠ بقلم الدكتور احمد السمان . وله مؤلفات حقوقية اقتصادية عديدة نهل منها طلابه في معهد الحقوق خلال ربع قرن .

أجزل الله ثوابه وتغمده برحمته .

● ألقى عضو جبهة التحرير الأرترية محمد أبو القاسم حاج حمد محاضرة موضوعها (أضواء على الثورة الأرترية) ، وذلك في المركز الثقافي العربي بدمشق .

● افتتحت وزارة الثقافة في المركز الثقافي العربي بدمشق ، معرض فن الرسم الأمريكي ، وقدمت في المركز الطفل الموهوب غزوان زركلي في عزف منفرد على البيانو لمقطوعات عالمية ، وعرضت الفلم السوفيتي الراقص (نجمة الصبح) . كما افتتح معرض الرسم للسيدة اقبال قارصلي .

● تقوم المديرية العامة للآثار بطبع بطاقات ملونة لصور القطع الأثرية .

الغابة المنسية

من المواد المقررة لهذا العدد عرض الاستاذ أبو طالب زيان لديوان (الغابة المنسية) لأحمد مخيمر . ارجئت لعدد قادم ، نظراً لوفرة مواد العدد .